الى القارئ

توالت المؤتمرات والايام الدراسية منذ أشهر وتعاقبت التصريحات الرسمية والمحاضرات والمقالات في الجرائد والمجلات ... تنذر بالخطر الذي يهدد بفناء البشرية بسبب تلوث الهواء ويكاد يجمع العلماء ورجال السياسة والاعمال على أن هذا الخطر أشد فتكا وأبعد أثرا من خطر القنابل الذرية .

فالجو الذي نعيش فيه والهواء الذي نتنفسه والماء الذي نشربه والبحار والانهار ... كلها تتلوث وتفسد وتتراكم فيها عناصر الفناء نتيجة تكاثر وتكاثف دخان المحروقات الزيتية في الصناعة ونشاط محركات الطائرات والعربات المتزايد ، وتراكم المواد الكيمياوية المبيدة للحشرات والمستعملة بالخصوص في الزراعة العصرية .

فكان التقدم العلمي والفني الذي هو عنوان فخر للانسان ودليل على سلطانه في هذه الدنيا أصبح العامل الفتاك الذي يهدد كيانه ، والشاهد العدل على عجزه وقصوره في السيطرة على اكتشافاته ومواجهة المضاعفات الناتجة عن غزوه للطبيعة وتسخيرها لرفاهيته وسعادته .

فهل نحن أمام قدر محتوم وتطور مفروض ، ليس لنا قوة ولا حول للرد على انتقام الطبيعة ومواجهة تحدياتها ؟ لا نظن ذلك ! المسألة تهم الانسان اولا وتتصل بضميره وقدرته على تبين الواجب والتمييز بين الخير والشر .

ان القضية اخلاقية قبل ان تكون فنية او علمية أو سياسية . ولعله من الصواب قبل تحليل اسباب تلوث الطبيعة أن ندرس تلوث ضمير الانسان والتباس السبل عليه وتغلب النفس الأمارة بالسوء فيه وما يعانيه من هيمنة الانانية وحب السيطرة والقهر والتكالب على الربح السريع والاغراق في الملذات والتماس الكسب الوافر دون الجهد الكافي .

وليست الحروب والاستعمار والعنصرية إلا جوانب لظاهرة واحدة هي ان التقدم الاخلاقي لم يواز التقدم العلمي والتكنولوجي .

فهل نتنكر للتقدم بعد هذا ؟ وهل نتأسف لما حققه الانسان من باهر الانتصارات وروائع الاكتشافات ؟ لا نعتقد ذلك . لأن الانسان حقق انتصارات كثيرة على نفسه وأصبح حظه من الكرامة أكبر من ذي قبل ، ولأنه قادر على تحدي واقعه وتجاوز ضعفه وبناء المعمورة الفاضلة التي يحلم بها ويتوق اليها .

ولا شك ان اختصار المراحل الى هذا الهدف وضمان اسباب النجاح يتمثلان بالخصوص في التربية إذ هي التي تكيف البشر منذ نعومة أظفارهم وهي التي تهديهم الى الخير والحق والجمال ، وهي التي تنشئهم على التحابب والتسامح والتآزر وتجعل منهم اخوانا .

وإذن فليست الحلول الفنية والعلمية والسياسية التي قد يستنبطها أهل الذكر لمواجهة تلوث الطبيعة هي الكفيلة وحدها بضمان حياة البشر وسعادتهم بل المشكل يتمثل في الاهتداء الى ماهية وأساليب التربية القويمة التي تصون الضمائر من التلوث وتزكي النفوس من الأدران .

الفكر

بمناسبة ذكرى حوادث 9 أفريل الوطنية

محفظة السمار *

قصة بقلم : البشير خريف

— I —

عندما يتفضل الشتاء باخلاء المكان ، وتركه للربيع ، يشعر المرء ، بعد اشهر طويلة من التحذر والتدثر والتبرم ، بانطلاق اسارير الطبيعة · فيتخلص من ثقيل الملابس ويحسن ظنه بالحياة ·

هذا الغصن قد برعم ، وانتفخ طلا · وهذا النبت قد نجم وتفتحت فيه التافعة ذات الزغب الناعم والاريج الشذى ، وهذا الطير ، كأنه حرف موسيقى على الاسلاك الهاتفية ، يملأ الجو انغاما ويقول :

— ها انا ذا ! لم يقض على الشتاء · فهلم للحياة يا اهل الحياة (I)

عند ذلك يغمر الدنيا سحاب كثيف ، بلا مطر ، فلا هو برد ولا هو حر · هواء لين وضياء كضياء العتمة · ذلك ما يسمى عندنا « غموق الورد » · لان اصحاب البساتين يزعمون انه يضرب بحمرة الورد الى السواد ·

* * *

في يوم من تلك الايام ، خرجت امرأة تتحامل من باب سيدي قاسم الى السيدة المنوبية · بيدها محفظة سمار ، من تلك التي ضمت كتب الجيل الماضي ودفاتره ، جيل الذين افتكوا الاستقلال باظافرهم ·

فلما وصلت الربوة ، توقفت ترد النفس وتملأ بصرها من برية الخضراء ،

(*) اطلعت على ما دار بالمائدة المستديرة حول موضوع « الانتاج الادبي وسلامة اللغة » بعد الفراغ من هذه القصة · فتلافيت ما امكن بالهامش · والعذر عند كرام القوم مقبول ·

(I) الطيور تتكلم الفصحى

بهضابها وغدرانها وبسط عشبها وباقات اشجارها ، يهيمن عليها جبل بوقرنين ، بسناميه الاغبرين ٠

سلكت المنحدر الى سبخة السيجومي حتى وصلت أجمة من الصفصاف العتيق في سفح الهضبة ، امام البحيرة ، وقابلتها جماعة من البنائين ٠ يعملون فاتجهت اليهم ٠

بلغها انهم يقيمون نصبا لشهداء التاسع من افريل واحست بقرب المنية ٠ فمن للمحفظة بعدها ؟ وعز عليها ان تتركها بين أيد غبية ٠

* * *

ارادت ان تبقى عليه في مثل ذلك اليوم ٠٠٠

لكنه عجب كيف تشير عليه بالتخاذل ٠ وتعرف من خلال احاديثه ، اعجابه بالبطولة ومقته للخذلان ٠

ثم ٠٠٠ ثم اكتشفت فيه معنى حياتها ٠٠٠

لكنه اخذ المحفظة وخرج ٠ ولم يعد اليها قط وفرغت حياتها من المعنى ٠ فلم يملأها ، بعده شيء

— II —

ما كان ابنها ولا اخوها ولا زوجها وانما كان كل ذلك ٠

عرفته عندما قدم العاصمة صحبة ابيه ٠ واقاما عندهم ، لمصالح بين الاسرتين وكان طفلا دون العاشرة ٠ وهي فتاة قد كمل جسمها واينع حسنها

نزلا غرفة الضيافة ٠ وكانت شقة قائمة الذات ، مستقلة بمرافقها واثاثها ٠ وبينها وبين الدار باب خوخة ٠

* * *

هيأه أبوه ، بعد العشاء ، للنوم ، وتركه ونزل الى بيت السهارة ٠ فلم ينم ٠ وطغى تطلعه على تعب السفر ٠ فنهض وخرج ٠

السقيفة ظلماء ٠ وابوه ومستضيفوه في حديث وسمر ٠ دخل باب الدار ٠ فاذا وسط فسيح وطيف فتاة تفر منه الى الحجرة ، مطاطئة الرأس ٠ وخرجت امها تخاصمه ، كيف يدخل على الحريم وهو رجل ٠ فبهت ، واستحى وكاد ان يأخذه الدمع ٠ فخرجت اليه ضاحكة تقول :

— هاو نصف راجل ٠ هذا يتخباو منه النساء (I) ٠

(I) هذا نصف رجل ٠ هذا تحتجب منه النساء ؟

وضحكوا من ارتباكه· وعانقوه وسلموا عليه وادخلوه حجرة تعج بالسامرين والسامرات · فاجلسوه بينهم ورجعوا الى ما كانوا فيه من حديث · قال عمر ، الاخ الاكبر :

ـ انت خوذ راجل · واذا حب يهزك حتى لجهنم ما يمنعه حد (1) ·

تكلمت اختهـــا :

ـ الراجل اللى باش يعجب نفيسة · مازال ما هبط من السماء · (2)

اجابتهـــــا :

ـ علاش ؟ ياخى الرجال الكل عندهم حاجب اعلى من حاجب (3)

فامتعضت الاخت لتهكمها على خطيبها ·

ـ أمى ، شوف بنتك (4)

ـ الله غالب بنيتى · نفيسة ما عجبها حد · واحد خشمه كبير والآخـــر لحيته معوجة والآخر دقنونته مذبة والآخر الى يخـدم فى الادارة · انـدرى آش طلعت فيه من طلعه (5)

ـ قالت يبدا ديمه يرمش فى عينيه (6)

ـ الآخر الى جابه عمك التيجانى (7)

ـ هذاكه ديمة يبرق · ما يرمشهمش بالكل (8) ·

تكلمت اختها الكبـــرى

ـ نفيسة تحب راجل يرمش عينيه بالمنقالة · كل دقيقة ترميشتين ، يزى يعيشك ، كثرت (9)

---

(1) تزوجى · واذا اراد زوجك ان يأخذك الى جهنم ، فلا يمنعه مانع

(2) ان الرجل الذى سوف يحظى باعجاب نفيسة لم ينزل بعد من السماء ·

(3) لماذا ؟ هل ان جميع الرجال لهم حاجب اعلى من الآخر ؟

(4) اماه ، انظرى ابنتـــك ·

(5) لا غالب الا الله ، يا بنيتى · لا احد ينال اعجاب نفيسة · فواحد انفـه كبير والآخر ذقنته مبرية والآخر ، ذاك الذى يعمل بالادارة ، تـرى مـا وجدت فيـــه ·

(6) قالت انه يرمش عينيه باستمرار

(7) والآخر الذى اتى به عمك التيجانى ·

(8) ذاك يحدق ابدا · ولا يطرف البتة

(9) نفيسة تريد رجلا يطرف حسب الساعة · فيطرف مرتين كل دقيقة · كفاك عبثا ، حياك الله ، لقد اكثرت

ـ علاش كثرت ، وخيتي ، اللى رآيتهم الكل ما قرش عليهم قلبي . والاوله والآخرة ، لا ترميش لا دقنونة مذببة . الرجال اللى خطبونى الكل كانه خايب يسخايل نفسه باهي. وكانه باهي يحسب نفسه صرد بن ورد (1)

ـ عاد آش يعملوا ، المغابن (2)

ـ نحب راجل كانه باهي يبدا ما يعرفش اللى هو باهي وكانه خايب . يبدا يعرف اللى هو خايب (3)

تكلمت الصغرى

ـ وهاك اللى جابلنا الحوت (4)

اجابت بسرعة ، وبصوت خافت ، لئلا تسمعها امها .

ـ هذاكة بالصحة ، وحرجه غامق . وكيف يتكلم ، يقوم يزوى . وفكوا على مانى ماخذه حد (5)

وعادت الى الطفل ، تمازحه . وتسأله عن بلده واهله . وهل اعجبته تونس ثم اخذ حوارهم لهجة الترافع . هى تهجو اهل القرى . وهو يدافع عنهم . فنهرتها امها ، خوفا ان يأخذ فى خاطره . فأجابتها انها تفكر فى اتخاذه زوجا لها . وامسوا فى فكاهة وانس .

* * *

هناك تفتحت عيناه على المدينة ومباهجها . يأخذه الاخ عمر ، كل صباح الى الحانوت ، حيث يجد اباه وعم رشيد فى بيع وشراء . فيلبث فى المقصورة يتلهى بوزن كل ما يقع تحت يده : طرود البضائع ، المفاتيح ،

---

(1) لماذا اكثرت . يا اخيتى ، كل الذين رأيتهم لم يوافق عليهم فؤادى . وعلى كل فالمسألة ليست مسألة اطراف ولا ذقن مبرية وانما كل الذين خطبونى كانوا أحد رجلين . اما دميم الخلقة ، يتوهم انه جميل واما جميل فيحسب انه صرد بن ورد .

(2) ماذا يصنع التعساء ؟

(3) اريد رجلا ، ان كان جميلا فيكون يجهل ذلك وان كان دميما يكون يعلم ذلك .

(4) وذاك الذى اتى الينا بالسمك ؟

(5) ذاك بدين وحواجبه وشواربه شديدة السواد . واذا تكلم يصير صوته كصوت الفار ... ودعونى فلست متزوجة بالمرة .

شاشيته ، حجرة التيمم ٠٠٠ يفتر النشاط التجارى قرب الظهر فيأخذون فى حديث السياسة والاخبار

ـ رخصوا فى معاليم اجراءات التجنيس ، واللى يحب يطورن يزيدوه فى شهريته الثلث ٠

ـ شوف الاغراء !

ـ هذا جبر موش اغراء ٠ فى الظاهر اللى يحب يطورن واللى يحب يقعد على دينه ٠ اما فى الحقيقة ٠ كيف يحلو فى الجنة ذراع للمتجنسين وينزلوا على اللى محافظ على دينه سوط عذاب ، عاهدك بيها البلاد الكل طورنت ٠ وحاجة اخرى ، هذيكه لا فيها اغراء ولا اختيار ٠ يحبوا يجعلوا افريقيا الشمالية باقطارها الثلاثة ، ولاية وحدة ٠ عليها حاكم واحد ٠ يعنى مقاطعة فرنساوية ٠

ـ الله لا يوصلهم لهاك النهار ٠ ومسألة الخلافة الاسلامية ٠ بالله آش صار فيها ٠

ـ آشكون ما زال لاهى بالخلافة ٠ فى الحج الحرب قايمة بين ابن السعود والشريف حسين ٠ وفى مصر الاحزاب تتناحر على الانتخابات النيابية ٠ وكل فول لاهى فى سوسه ٠

* * *

يعودون بعد الظهر الى المنزل ٠ فيدخل عم رشيد الى داره ويطلع مع أبيه الى الغرفة ٠ فيجدانها مرتبة ، نظيفة ٠ المائدة مبسوطة ٠ فيفطران ويسكنان الى فراشيهما للقيلولة ٠ فينتظر حتى ينام ابوه ويستل ٠ وينزل الى الدار فيجدهن يطرزن على قراقفهن فى البرطال ، تجاه خصة من الرخام ٠ فكانت تكلف باحراجه ٠ فلا تناديه الا « يا نصف راجل » وتطلب منه ان يأتيها بالهدايا ، على انه زوجها فيحتار ٠ فيضحكن من حيرته ٠ ورغم ذلك ، كان يقصدها وحدها ، دون اخواتها ٠ فهى تبدل ثيابه وتدس فى جيبه التحف والفواكه ٠ واليها يفزع عند نوائبه الصغيرة ٠ تؤلمه وتأسوه ٠ ومنها يستعذب كل شىء ٠

لم يجدهن مرة ٠ فذهب الى الخصة ٠ ووقف يتفرج على محابس القرنفل المحيطة بها وعلى سميكات حمراء تلعب فى مائها ٠ ثم راح يستكشف ويطلع ٠

وجدها في المطبخ • خالية الى نفسها • وبين يديها احدى مجلات اخيهـــا تتهجـــاهـــا •

ــ ايجا صادق ، قل لى شنوة ها الحرف ؟ (1)

ارتفعت معنوياته • واحس بنخوة • هذا ميدان يفوقها فيه • اخذ يريهـا الاحرف • ويراجعها كلما اخطات • ثم ، عن لها ان تعاكسه•فلا تأخذ باشاراته لما داخله من زهو • استمرت تقرأ ، كما ترى • فيغضب • فتسترضيـــه ويضحكان عما وجدا من معان غريبة ، تتألف من اغلاطها • ثم طلبته ان يأتى لها بكتاب تهجئة •

ــ وما تقول لحتى حد • سمعت ، يعيش خويا (2) •

* * *

ودار الفلك دورات عديدة •

مات الابوان • وانقطعت العلاقة بين العائلتين • ودخل العاصمة ، ثانية شابا فى عنفوانه ، يطلب العلم • فأقام بالمدرسة • وانقضت سنواته بيـــن الدرس بجامع الزيتونة ونوادي الحركة الوطنية •

وكانت مهمته التعريف بالقضية التونسية فى صحافة الشرق • والتشهير بالاستعمار • وكشف فظائعه بما لا يمكن نشره فى بلاد يسيطر الباغى عليها • وخنق انفاسها • فكانت لمقالاته ، فى الاوساط المثقفة ، رنة وصدى •

ولم يعد يذكر ايام دار عم رشيد الا كحلم عابر من احلام الصبا • ذهب حيثما ذهب الدهر • الى ان جمعه وعمر اجتماع دستورى •

فألح عليه في مرافقته الى الحانوت ، حيث انتصب خلفا عن أبيه • وتذاكرا ماخلا من الايـــام •

ــ نفيسة ؟ يا حسرة عليها لو كان تراها ما عادش تعقلها اخوتهـا الكـل عرسوا • وانا زاده تزوجت ، وتوة بصغيراتى • وهى قاعدة كيف ما تعرفها (3)

---

(1) تعال يا صادق • قل لى ما هو هذا الحرف
(2) ولا تقل لاحد • أسمعت ؟ أطال الله حياتك يا أخى •
(3) لو تراها ، ما اظنك تعرفها • تزوجت جميع اخواتها وانا كذلك تزوجت ولى صبية • وهى ، هى كما عرفتها

– باقى ترد فى الخطاب ؟ (1) ·

– يا ليته ! مرضت مسكينة ، وما عادش متاع زواج (2) سكنت فى العلى اللى تعرفه وهانى متحمل حملى وحملها ·

ثم انتقل به الى حديث الحركة · واسر له رأيا ارتآه ، فى غاية الخطورة ولم يتفطن اليه احد ·

– صلاة الامة بكلها باطلة !

وابتعد ينظر وقع الفكرة على المسكين ·

– كيف ذلك ؟

– اينعم ! صلاتنا ابياتنا من قبلنا بكلهة مشات كرفى (3) ·

– ياللداهية !

– ها وتوة نقرب لك · ثماش ما تفهم · نعرفك ذكى · منذ الثانى عشر من شهر ماى سنة 1881 الموافق لذى الحجة 1298 ، صلاة الأمة الكل باطلة !

وبعد ان بلغت دهشة صاحبه مبلغها ، ابتسم وقال فى هدوء :

– فى هاك التاريخ ، بلادنا وقع احتلالها · فهى مغتصبة ·

وسكت · بقى الصادق ينظر وينتظر ·

– ولا تصح الصلاة فى الارض المغتصبة · اجبد عليها ! (4) ·

وصفق له كفه فى مصافحة مدوية · وتابع :

– ولذا ، فأول واجب على المسلم ، تحرير ارضه · انا مثلا ما عادش نصلى · آشنية الفائدة ؟ كان ربى حن علينا بالاستقلال ، نقضى الكل ·

وقال انه يريد ان يعقد فى ذلك فصلا · والتمس منه المساعدة فى تحريره ونشره · اما اقوال الفقهاء ، فهى لديه حاضرة · واما صياغتها فى مقال ، فذاك موضوع المساعدة · ودعاه الى تناول الغداء ·

* * *

(1) هل ما زالت ترفضين الخطاب ؟
(2) لم تعد تصلح للزواج ·
(3) ذهبت سدى ·
(4) لم أجد مقابلا لها بالفصحى ·

منذ زمن ، اقتصر تفكيره ، فى الجنس المقابل على خطيبة وعدوه بها فى قريته • لا يعرفها ، ولكنه يجعل الضمير اليها كلما تغنى بشعر الغزلين ، فى شواهد النحو •

دخل يعيد النظر فى اماكن شهدت فترة من صباه • الدار باقية على حالها • البرطال ، الغرف المتقابلة ، الحصة • لم يجد القرنفل ولا السميكات • ثم انها بدت له ، اصغر مما فى خياله • اصغر واقل حسنا •

وضعت السفرة فى بيت عم رشيد ، رحمه الله ، فجلس يستمع الى حديث عمر •

ـ شوف سى الصادق ، قلت نعمل العنوان « تنبيه الغافلين » وكلمة اخرى توفى بالاين •

ـ نور اليقين فى تنبيه الغافلين •

ـ لا ، نور اليقين نعرفه اسم كتاب •

ـ هات اقوال الفقهاء • والعنوان يجى من بعد •

* * *

ـ هكة نحبك تطل على ساعة ساعة • آشكون عندى ؟ ما يجينى حد (1)

واستقبلته فى شوق الاخت الحبيبة • شتان ما بين من عرف ، وهذه ، فماذا تفعل العلة بالورود ! ذبلت وارتخت بشرتها • واستحال بياضها الازهر الى بياض سوسنى باهت •

تهكمت عليه كما كان شأنها • وضحكت ضحكة من ضحكات الماضى • ولاح بعينيها بريق ، ما فتىء ان اصطبغ بمسحة حزن •

ـ نسيت هاك الوليد الى كنت نطيرها له وهو يبدا يغزل وانا نضحك عليه ؟ (2) •

ابتسم ابتسامة الصفح عن كل اساءاتها البريئة • وسألها لم احتجبت عنه لما قدم مع اخيها لتحرير المقالة ؟

---

(1) هكذا اريد أن تزورنى من ساعة الى ساعة فمن عندى ؟ لا يأتينى احد •

(2) انسيت ذلك الطفل الصغير الذى كنت اتهكم عليه وهو مغتاظ وانا اضحك منه ؟

ـ قلت هذه ما عادش تعرفني · وندمت اللي جيت (1) ·

ـ يا غلبة ! هاك اللي ما زال ! (2) ·

وقالت انها لم تفعل ذلك امتناعا ، او تجنبا · كما كانت تفعل ، وانما صارت تستر ما فعل بها المرض · حامدة الله تعالى ، على بقائها عالة على اخيها ·

سألها باحتشام ، عن ذاتها ، هل تفكر في الزواج ؟ فكشفت له عن ساعديها ، فاذا هما اضعف بقليل مما ينبغي ·

ـ آشكون ما زال يرضى بي · وانا نجم نقوم براجل واولاد ودار ؟

ذكر تهافت الخطاب عليها · واسف لاعتباراتهم الدنيئة ظنا منه انهم انقطعوا عند نكبتها ·

ضحكت وقالت :

ـ زادوا يا وخي !

واتمت في حزن :

ـ جايبهم الطمع ·

* * *

ـ نفيسة ، يا نفيسة · هيا تراه · شد ها القناوية المحنونة ، وفوح وطيب وميل رأسك · وهاو الصادق باش يفطر معانا ·

خرجت من المطبخ ، وقد رفعت ذيل فوطتها وعقدته على جنبها · واقبلت عليهما باسمة · تميس ميسانا · فكان لوقع قبقابها على الرخام ، اعذب موسيقى في اذنه ·

أخذت القرطاس وهي تنظر نظر السؤال · فتكلم الصادق ·

ـ هذيكه قناوية وطنية · اذا تعرف بعض المخاوزين ابعث له منها غرفة ، يصبح وطني صميم ·

جاءت لهما بكرسيين ووقفت تستفهم · قال عمر :

---

(1) قلت في نفسي : هذه لم تعد تعرفني · وندمت على قدومي ·
(2) يا ويلتاه ! لم يبق الا ذاك !

ـ خليني نسلت عرق الغلبة ! (1)

وارتمى على احد الكراسي وتابع موجها خطابه الى الصادق ·

ـ انا ما زلت نتبعك ؟ (2)

ـ فهموني آشنية قصتها ها القناوية ؟

ـ يا للا انا في الحانوت · وجاني سي الشباب قال لي : ها هو نص المنشور باش تخرج منه نسخ بالمطبعة الحجرية · قمت ومشيت معاه · وصلنا للمدرسة الراجل زاد القدام · خزرت ، غمزني ، نشوف ها الزوز رجال يتبعوا فينا

ـ يا غلبة ! بوليسية (3)

ـ ءاينعم يا للا ! بوليسية سرتي (4)

اغرب الصادق في الضحك وهو ينظر اليه · مصفر الوجه مضطرب اليدين :

ـ نقول لنفسي يا عمر قيلك من ها الدعازق · وهي هي ما نتهناش · ان شاء الله العاقبة خير (5)

وهو ـ وامثاله كثيرون ـ من الوطنيين الجبناء · يخاف المسؤوليات ، لكنه لا يلبث ان يعود · لان بدماغه دودة لا تمهل به ، عند الظروف الحرجة · تلك الدودة التي عناها المجاهد الاكبر ، أول امره ، لما كان يجوب البوادي والقرى على سيارته القديمة ، ويحيي ما استكان من الهمم ·

اراد احد الشواشية ، بالبركة ـ وكان من اقارب اسرته ـ ان يعظه :

ـ يا سي الحبيب ، تبارك الله ، تمت قرايتك ، وخذيت شهايدك وجا وجهك للضو · وما يخفاكش آش تعبو عليك اهلك باش وصلت ها الدرجة · اما خير تفتح بيروك وتخدم على روحك والا تقعد تعمل في ها الشيء هذا · الله يهديك · ياخي اليد تعاند الاشفى · هذه دولة عنـدها الطيـارات والمدافـع والاطناك · وانت آش عندك ؟

فحدق فيه ، بنظرته الثاقبة ، وأجابه :

ـ انا عنـدي الدود ·

---

(1) دعني انشف عرق القهر ·
(2) ما عدت اتبعك بتاتا ·
(3) يا ويلتاه ! اعوان شرطة !
(4) اى نعم يا سيدتي · اعوان الشرطة السرية ·
(5) اقول في نفسي دعك يا عمر من هذه المخاطر · لكن لا البث ان اعود اليها·

وشرح لبلاهته المحملقة :

ـ اللى يسمعنى تتحط فى وذنه دودة . تقعد تنغمش . وهو يكلم ولده ، وخوه ، وولد عمه ، وجاره . واللى تتحط له دودة ، ما يرتاح الا ما تخرج هاك الدولة اللى عندها الطيارات والمدافع والاطناك ... (1)

فدودة سى عمر تتناجز وجبنه . فيهجم تارة ويحجم اخرى .

قال انه استمر يتبع الصادق . ومن ورائهما عونا البوليس وفى سوق البلاط ، وقف الصادق على خضار يشترى القناوية وفى سباط الزيات ، اوقفهما البوليس وساقهما الى المركز .

ـ انا متهنى . ما عندى شىء . اما خايف على الطفل . بعينى رأيت المنشور وراه لى فى الحانوت ، نشوف فى الراجل هازز يديه . متهنى ، لاباس عليه . وهم يفركسوا . شىء مالقاو . خرجنا . يصبح يرجع لسوق البلاط ويجبد الوريقة من تحت طبق القناوية .

وضحكوا ، وعلقوا ، وتندروا . وكانت اكثرهم نشوة وشعورا بالانتصار ، وعادت الى وجهها نضرة الشباب فجعل ينظر اليها . فاذا جمالها لم يكن جمال تقاطيع وانما هو جمال النفس .

* * *

عاد الى البيت . زميله سى بوبكر يطبخ التاى ورفيق آخر ، يلبس بلوزة ، وعلى رأسه شاشية مشرومة يقلب بين يديه آلات حديدية . سأله :

ـ تعديت ورآيت ؟

ـ رأيت البلايص ونعرف شغلى (2) .

وناوله الآلات . فأخذ يرتبها فى محفظته . بينما انهمك الآخر يصلح احداها باسنانه البارزة .

لم يكن من فئة الطلبة . وانما كان يغشى اوساطهم من حين لآخر . للفكاهة والانس . كما كان يغشى اوساطا اخرى لاغراض اخرى ، دون ان ينتمى لاحدها .

---

(1) كلام الرئيس لا يحرف

(2) رأيت الاماكن واعرف عملى .

فقد هرب من المكتب حيث وضعته الارملة أمه · وهرب من دكان النجار ومن دكان الحجام حيث وضعته صانعا · ولم يثبت فى مكان · فهو من نوع لا يصلح لشىء بعينه ، ويصلح لكل شىء · فزيادة على اختصاصات اختص بها ، كتقليد الناس والخط الجميل وانتشال محافظ الافرنج ، فموهبته الكبرى هى الاقناع · والتظاهر بما يريد · تجده احيانا اعور واحيانا اعرج · فيحتفظ بعوره او عرجه ، ان اقتضى الحال ، اياما واسابيع · مبدؤه الثورة على الاوضاع واذا ما تمت له الثورة يثور عليها ·

يعرفون عنه انه أقام لدى اسرة ، عدة اشهر فى صفة مغربى عاقته الاسباب عن الحج · واقام لدى اسرة اخرى كذلك اياما ، على انه ايطالى اسلم ·

واذا ما طلبت نفسه الاستقرار ، ينتصب فى الاسواق ، يبلـع مسـاحيق صنعها بنفسه ، منمواد تافهة ، على انها ادواء للامراض السرية ··· وكثيرا ما يعود اليه حرفاؤه ، يستزيدون ويشهدون بنجاعتها ·

اخذ الصادق كأس تاى · واشعل سيقارة · ونظر من نافـذة البيـت الى سطوح المدينة ، يتأمل · وجعل سى بوبكر يزيد الماء ويرجع البراد الى النار ويسقى الجماعة اكؤسا ، ما فتئت ان استحالت الى ماء بالسكر ، وهم يحتسون وينتظرون الساعة

* * *

وعندما توسط الليل ، خرج يحمل محفظته وراء رفيقه · وصلا الى الساحة · المصابيح تشع ضياء فاترا · وسمطا سكة الترمفاى يلصفـان ، ممدديـن ، موغلين فى ظلام الشارع · رأيا عون البوليس من خلف · على اكتافه عباءته ، وهو يذرع الشارع جيئة وذهابا · فتابعا طريقهما حتى توسطا طرقا مشتبكة ، أخرج ضمة من الآلات وناولها صاحبه · فامسك مفتاح الانقليز باسنانه ووضع المربوع والرباط فى جيبه · واثبت اصابع رجله فى حرف الجدار وبدأ التسلق · عثر ، فشعر بجزع قطع عنه التنفس · انصت ، لا شىء · النسمة تسوق ورقة على الاسفلت · فكر لو يعثر عليه فى هذا الوضع ، فيلقى عليه القبض ، سبهللا فتشجع وهان عليه الخطر وتابع ، مسرعا ، تسلقـه ·

تجرحت اكفه وانسلخت ركبتاه · ارتطم الكلاب بالصفيحة فاحدث قرقعة مريعة · ورشح العرق من جبينه ، وسال على جانبى وجهه · فمسحه بكمه · التفت ونظر تحته ، الصادق هادىء · ينظر الى طرف الشارع · فسمى باسم الله وانشأ يعمل بثبات ·

ومن الغد ، اصبحت عدة من الصفائح الجديدة للانهج ، التى شاءت البلدية ان تجعل حروفها العربية تحت الحروف الافرنجية ، منتزعة من اماكنها ، ملقاة فى ناحية من الشارع ٠

* * *

فى سقيفة المدرسة ، القى عليه القبض بالطف ما يكون ٠ اراد ان يقاوم ٠ فنصحه عونا البوليس بعدم التهريج لئلا يضطرا الى القيد ٠

ادخلاه دهليزا ، فى مركز فندق الفول ٠ ودفعاه الى عملاقين نزعا ملابسه العليا ٠ وربطا يديه فى حبل مشدود الى السقف وانهالا عليه ضربا بالنافعة حتى اغمى عليه ٠ فجراه الى حجرة بها سكارى يتغازلون ، من وراء الجدار مع مومسات ، بحجرة مجاورة ويتبادلون الفحش وبذىء الكلام ٠ فالقى به هناك ٠ ولبث فى ركنه الى الصباح ٠

سيق الى مكتب الحاكم الفرنسى ٠ فتكلم عن مبادىء مشروعة ، يعلمها كل متحضر ٠ مبادىء جاءت بها كل الشرائع السماوية والوضعية ٠ وقامت عليها الثورة الفرنسية نفسها ٠ فكان يتكلم بصدق فى اللهجة وحماس مخلص رأى وقعهما فى نفس الحاكم ٠ الذى كان ينصت اليه باهتمام وهو يشبك اصابعه ويحك يديه ، ثم نظر اليه مليا ونصحه بان يذر التشويش ويتابع تعلمه ٠ وان هذا الامر من شأن الكبار ٠ واما الشبان فواجبهم يتلخص فى تكوين انفسهم اولا ٠ ثم ينظرون ٠ وانه مطلقه الآن وليحاذر ان يقع فى مثلها وتبعه الى الباب ٠

* * *

اعترضته وعانقته وقبلته ٠

ذكر لها ما جرى ٠ وأراها آثار الضرب ٠

ـ اسم الله عليك ٠ يعطيهم كسرة فى ايديهم (1)

وامرت يدها على الرضوض ، تكمدها ٠ واحضرت زيتا حاميا ، وجعلت تدلكه ٠

ـ لو كان رآيت الليلة اللى تعدات على ٠ ما عرفت وآين نقبل ٠ الله لا تعطينا ما يغلبنا ٠ انت عارف آش صاير لك ٠ اما انا بايته ، اللى يقل لك ٠ على الجمر نتقلى ٠ يا ربى وآين هزوه ؟ آش عملوله ؟ آش صارله ؟

---

(1) تبت ايديهم ٠

ـ آش تحب تعمل · الحركة ميش كلام فارغ · كليت طريحة وهاآنى روحت

ـ ربـى معـاك

ـ المجلس اللى قرر مظاهرة كبيرة · نهار ثمانية افريل

ـ رد بالك ، يعيش خـويـا

ـ شيء · ما ناش فاكين · حتى نحصل على مطالبنا ·

ـ ربى ينصرنـــا

احس دفأها وحنانها · وتذكر هول ما رأى البارحة ، فأخذته رعدة الحمى · واسند رأسه الى صدرهـا ·

ـ كيف تبدا ورايا ، الدنيا نقلبها ·

وضمها اليه وحاول تقبيلهـــا ·

ـ وه ! وه ! وه ! (1)

ـ آشكون عندى · امالـه ما عندى حد ·

فضمته برفق · وهمست فى اذنـه

ـ وانا شكون عندى يا عزيزى · مانى نخاف عليك عندى نصيف راجل · ربى يخليهولى ·

* * *

دخل عمر واخبر انهم يتعقبون الوطنيين ويفتشون النوادى والمدارس· امتقع لونه · وقال ان ببيته مناشير وسلاحا · فأشار عليه باتلاف ذلك · وان يقيم عندهم هذه الايام · نظر اليها · فلم ير منها انكارا · وبعد ان خرج الاخ سألها :

ـ آش نعمـل ؟

ـ كيف ما قال لك · ايجا لهونى ·

ـ والمناشير والسلاح وقماش اللافتات ؟

ـ وآين حاططهم ؟ (2) ·

ـ شىء فى المحفظة وشىء تحت الفرش

ـ اللى تخاف عليه · جيبه لى (3) ·

---

(1) ويلاه ! ويلاه ! ويلاه !

(2) اين انت واضعها ·

(3) ما خشيت عنه ايتنى به ·

* * *

قضيا العشية فى جيئة وذهاب بين المدرسة والنادى والعلى • يحمـــلان القماش وقوارير الحبر وآلة الطباعة والورق والمناشير ومسودات مقالاته •

سألته عن رفيقه :

ــ هذاكة اشتبك حوس •

ــ شنوة اشتبك حوس ؟

ــ موش اسمى • انا اسمى علالة ، اما الاولاد ••• باش بفدلكوا •

ــ على خاطر يشبكها ويمشى يحوس (1) •

ــ شبيه ديما يضحـك ؟

ــ سنيه خارجه • يظهر يضحك حتى كيف يبدأ متغشش •

استظرفته • وجعلت تمازحهما • فتكلم لها كلام الايطالى الذى اسلم ومشى مشية الاعرج وقام بالعاب سحرية • كأن يدخل البيضة من فمه ويخرجها من دبـره •

اصلحت لهما بدلتى الشبيبة اللتين سيرتديانها من الغد وساعـدتهما على كتابة اللافتة وباتوا يتذاكرون ماذا ستكون عليه المظاهرة •

قال ان نساء كثيرات سيشاركن :

ــ لا شبينا وخيتى • احنا اعز من الرجال • اماله نخليو النصارى تغلبنا ؟ يكب والله سعودهم (2) •

* * *

لم يرض الشعب بالاحتلال البتة • ولبث يقاوم كالجسـم السليـم الـذى اصيب بجرثومة دخيلة ، ومرت المقاومة بمراحل • فمرحلة الدهشة ، ثم يقظة النخبة والكتابة فى الجرايد ومقاطعة البضائع الاجنبية ، ثم رجعت فتيــة أخذوا منطق المحتل من منهله • فجادلوه بالتى هى احسن وأفهموه بحججه • فقيل لهم « انكم لا تمثلون الا انفسكم • واما مواطنوكم ، فانهم شعب بدائى • لا يعرف الانتفاع بما تطالبون » •

واحتجوا ببرقيات التأييد التى ترد عليهم من عملائهم • فأذن الزعيم بحلول مرحلة العمل المباشر • وايقاظ الشعب باسره • فنزل القادة الى الشارع •

---

(1) لانه يشبكها ويذهب يتجول •

(2) هل نحن اعز من الرجال ؟ هل نترك النصارى تنتصر علينا ، قاتلهم الله !

واقاموا الدليل على انهم يمثلون الشعب • وان الشعب جدير بمطالبه • فبدا للمستعمر ان يعجم هذه الاعواد واذن بالقمع والسجن والنفى • فكان الشعب يخرج من كل ذلك اشد صلابة واوفر كرامة وانصارا ووسائل •

وتعنت الاستعمار • واستمات الشعب واحتدمت الاحداث •

قام احرار بنزرت بمظاهرة • فالقى القبض على قادتها • فقام آخرون بمظاهرة اكبر ، بعد ثلاثة ايام • اسفرت عن قتلى وجرحى ، ثم اضرب احد عشر ألف عامل • وانعقد المجلس الملى واعلن الزعيم الكفاح • وشاءت الظروف ان تعتل صحته الغالية • فتعلقت همة الشعب بأن يقوم بماعاهد عليه زعيمه• ويسلك ما اوصاه به من قوة وتكتل فى رصانة وامتثال •

انعقدت الاجتماعات • وتعينت مظاهرة بالعاصمة ، مظاهرة جبارة ، عامة ، شاملة ، ذات شعبتين تنطلق احداهما من الحلفاوين والاخرى من رحبة الغنم • ويلتقيان فى ساحة السفارة • وتعينت طرق المظاهرة وتقررت تفاصيلها • واضطلعت الكشافة والشبيبة بحفظ النظام •

* * *

فى اليوم الثامن من افريل سنة 1938 ، اصبحت المدينة فى سكون رهيب • الاضراب عام كامل • الوجوه متهللة بنور الحماس • وزمر الشبيبة تجوب الشوارع والساحات يستنفرون الوطنيين ويستنهضون الهمم • والقوات الاستعمارية تشتت التجمعات • فترفض من هنا وتتجمع هناك • وكلما دخلت زمرة من الشبيبة حيا ، يستقبلهم الاهالى بالهتاف والزغاريد •

فى الزرارعية ، تجمعت ثلة من الشبان فى الزى الكشفى يصفقون ويهتفون •

ـ برلمان تونسى (1) •
ـ يسقط الاستعمار
فخرج اليهم اعوان البوليس •
ـ سنفرك آذانكم قليلا ايها البيكو
فلم يتمالك احد الشبان من الصراخ فى وجوههم ، وسبهم بقوله :

---

(1) مجلس امة تونسى

ـ يحى بورقيبـة !

وصاح آخـر :

ـ تسقط فرانسـا !

فتكاثرت عليهم الاعوان من كل صوب وساقوهم الى فندق الفول ٠

وفى باب النارة ٠ اشتبك شابان مع البوليس ورفضا المرور وعاكساهـم وتخلصا منهم فرارا ٠

وتزايدت القوات الاستعمارية ٠ وقامت الاجتماعات فى مختلف الاحياء ٠ فمن خطيب يحاسب الاستعمار ومن مقرىء يتلو آيات الجهاد ومن منشد ينادى :

نموت ، نموت ، ويحيـا الوطـــن

وانتصب رجال البوليس والجندرمة فى الانهج المقررة لمرور المظاهرة ٠ ونزل الجيش الى باب البحر ومدت الاسلاك الشائكة حول السفارة ٠

وكان يسمع للمدينة هدير كهدير البحر الهائج ٠

وعند الظهر تحركت الخلائق من الحلفاوين ومن رحبة الغنم ٠ وظهرت الطلائع فى باب البحر ، من الزرارعية ومن نهج الجزيرة ٠ فانضم بعضها الى بعض امام « البياصة » وامتزجت واعتدلت ٠ ولاول مرة فى تاريخ الحركة : تختلط سفاسر النساء بجبائب الرجال والاعلام تخفق واسطر اللافتات فـوق السمط الجبـار تنادى بالعربية والفرنسية :

« برلـمان تونسى »

« السلطة للتونسيين »

« تسقـط الامتيـازات »

واحاطت الشبيبة والكشافة بكتلة الجمهور ٠ وامتدت السواعد ٠ وتقابضت الايدى ، ماسكة تلاطمه والهتاف والزغاريد بالغ عنان السماء ٠

وتوجهت ، عظيمة ، جبارة ٠ وصلت امام السفارة ٠ وملأت الارجاء دون ان يخرج واحد عن سلسلة السواعد الشابة ٠

واعتلى الزعماء الاكتاف ٠ وخطبوا ٠ فاعلموا الشعب ان مطالبه بلغـت ٠ واهابوا به ان يقيم الدليل ، بهدوئه ، على جدارته بهذه المطالب ٠ وانه قادر على التحصيل عليها بطرق الشعوب الرشيدة ٠

وما وجدت القوات الاستعمارية مجالا للتدخل ، اذ كان الشعب باسره ، ممتثلا ، فى عزة واباء ، لاوامر شبيبته التى يرى فيها بذرة جيشه المقبل ومحافظته المستقلة

وانحلت المظاهرة • وتفيأ الناس • وابتلع كل شارع نصيبه • لكن احساس ملح كان يجتلبهم الى النادى ، بنهج سيدى ابراهيم فرأى الزعماء ان لامناص من كلمة فى بطحاء خير الدين •

فصعد المنجى سليم على ظهر سيارة واعقبه علاله البلهوان ، فخاطب الشعب بما زاد فى نخوته ••• كفى لعبا •

ان البلاد مريضة وليس بشرب الماء تنطفىء الحمى

وتسلق عصمان المصور السطح يخلد بعدسته، للاجيال المقبلة ، انتفاضاتهم المجيدة • وارفض الجمع ، يهنئون بعضهم بالهدوء والنظام ونجاح المظاهرة • وهم يمزحون لانزلاق طربوش زعيم الشباب الى الوراء فيضربه ويرجعه على جبينه • ويحاكون نطق الزعيم المحبوب بزهو واعجاب •

* * *

خرج ، الصادق ، من الغد ، قاصدا المدرسة فوجد سى بوبكر لا يزال تحت الغطاء •

ـ آشنية الاخبار ؟

ـ نستنى فيك تجيبش جرايد •

لكن للجرائد اثمان • والطلبة معروفون بالافلاس • قام سى بوبكر ينظر هل من قهوة ، فلم يجد السكر • وارتأى ان هذا اليوم ، يوم عيد ، يجب الاحتفال به باعداد اكلة دسمة واشتراء قارورة معتقة • ونظر الى فراشه نظرة مضرة وقال :

ـ الصيف جاء • وها الغطاء الكل ما عادش به فايدة • مد هاك البطانية نبيعها للجربى ونحل باب الفرج •

واخرج من تحت السدة قوارير بالطرشى والكبار والليمون والزيتون • وقال :

ـ هاك الف لنا من ها الدبابيز سلاطة مليحة • وشعل الكانون وهانيجيتك

* * *

رجع يخبران المدينة مقفلة · وان اعوان البوليس يتجولون وعلى رؤوسهم الخوذات وبأيديهم الرشاشات · وعند الضحى ، دخل اشتبك حوس واخبرانه القى القبض على جماعة اخرى من الزعماء · وبدأت الاشاعات تتوالى · وخرج الطلبة للاخبار ، مهتاجي العواطف ، متوترى الاعصاب وشاعت بين احياء المدينة وفى الاسواق ·

ــ ضربوا الحصار

ــ الزعماء تشددوا

ثم بلغهم ان الطاهر صفر لدى الهادى الاخوة ، الوزير الاكبر · فتجمعت الوفود امام دار الباى · وخاضت فى تسآل وتجواب · لم يقفوا على جلية الامر وسرى همس ارتفع الى غوغاء

ــ غدروا !

ــ نكث الاستعماريون عهدهم ·

ــ الى دار الزعيم ، الى رحبة الغنم ·

ــ يحى بورقيبة !

وانتشر الفتيان يحملون الخبر الى مختلف احياء المدينة · فى باب النارة ، همز الصادق سى بوبكر بمرفقه ، وكان اعشى ، فالتفت ، فأراه معلقة بالجدار ، بها قرار من القيادة العليا لجيش الاحتلال وبركنيها العلويين علمان فرنسى وتونسى · وشاءت سخافة العلج الذى صففها · أن يجعل العلم التونسى منكسا والعلم الفرنسى اقعس ·

تغير وجها الشابين ·

نكث العهد · تبجح بالقوة المسلحة ، التى ليس لنا مثلها · القاء القبض على القادة ، ثم توافه من الاهانات ، لا غاية منها سوى جرح العواطف · كتلك او اعتلاء حروفهم على الحروف العربية او ذلك النصب الذى يمثل قسا ما سكا بصليبه امام مدخل المدينة ، موليا وجهه للبحر ومستدبرا جامع الزيتونة · وما دروا ان وضع الحجر الاساسى لذلك النصب قد زعزع حجر الاساس للاستعمار من جميع البلاد ·

توافه ! لكنها الهبت العواطف واججتها · كالحصاة التى تدفعها النملة · فينهار لها البناء المشمخر ·

اجل ، لو كان انف كليو بطرة اقصر ، لتغير وجه التاريخ !

اغتصاب الارض التجمل بالعمل البخس ، غبن الحقوق ، قد يجدون له من المبررات السفسطائية او القدرية • واما هاته ففيها اهانة ، ولا مبرر للاهانة •

* * *

هرعت الجموع • واحتشدت فى رحبة الغنم • امتازت الزيتونة بحماس الطلبة وامتازت الصادقية بحماس الاساتذة• صعد احدهم فوق البوالة وانطلق يتكلم والوجوه ، حوله تصغى ، والعيون تبرق والمراجل فى الصدور تغلى •

كان اجتماع هذه الامة ، بزعمائها الشبان حول دار المجاهد الاكبر ، وقد سخر منهم المحتل وقهرهم بقوته الغاشمة • كاجتماع الصبية العـزل حـول أبيهم المريض ، لائذين به من الباغى الاثيم •

والشعور بالضعف اكبر محرض للطاقات الكامنة • فاستعرت فى الجماهير حمية طغت على جميع الاعتبارات • يعلمون انهم يلقون بانفسهم الى التهلكة ، والقوا• فالمسألة مسألة كرامة بعد ان كانت مسألة حقوق • ولا حساب مع الكرامة •

* * *

فى باب جديد رجل يجرى ويقول :

ـ علالة البلهوان والمنجى سليم تشدوا •

وآخـر يصيـح :

ـ الجهـاد فى سبيل الله !

عزق قلبه • حان وقت اليقين • وحلت الموقعة التى ستفصل بين الثرثارين واولى العزم • ذكر وجوب انتزاع الاولاد من ايدى الكفرة الفجـرة • فـذهب يأخذ سلاحـه •

* * *

••• ارادت ان تبقى عليه فى مثل ذلك اليوم • فرأته قد استاء • فجعلت تلتمس التعلات :

ـ استنى •

ـ آش نستنـــى ؟

ــ استنى عمر . عيش خويا . واعمل رأى انت وأياه ، تجرى لكش حاجة، الريح البرة (I) . واهلك متهنين بينا ، آش يقولو ؟

ــ مالى ومالعمر ومالاهلى . انت اعزما عندى فى الدنيا ، هاك قدامى . آش مـــا زال ؟

تأخرت قليلا . وفتحت فيه عينيها وقالت :

ــ وه ! (2) آش معنى ها الكلام ؟

ــ معناه نحبك ، نحبك ، نحبك ، فهمت توة .

ــ وه !

ــ نعبـــدك .

ــ ما نحبش اللعب رانى !

ــ آم لعب؟ تحبش نخطبك من خوك، ترضاش بى ناخذك قدام ربى والعباد.

ــ انا محسوبة اختك . واكبر منك .

ــ آش عنـدى فيـــك .

ارتجفت شفتاها ، واصفر وجهها واعادت :

ــ بجدك والا تلعب ؟ رانى ما نحبش اللعب .

نظر اليها شزرا :

ــ اللى يكلم فيك يعرفك ويحبك ويجلك . قولى ايه

وأخذ رأسها وحـركه باشارة الايجاب . فتدفق كل دمها الى وجههـــا . وابتسمت له ابتسامة رأى فيها اعماق روحها . انحنى يقبلها ثم :

ــ المحفظـــــة .

* * *

جرى الكر والفر من الحلفاوين الى رحبة الغنم . ومن باب البحر الى القصبة. وهرع فتيان باب سعدون وسيدى محرز والمدينة والاسواق . واتجاه الجميع « التريبونال » وقد احاطت به قوات الجندرمـة والبوليس . واندلعت الخلائق افواجا من الاسواق وباب الجزيرة وباب بنات . واندفعوا على السياج . وبدأ الضرب بمؤخرات البنادق . وبدأ القذف بالحجارة . وانقلب الوطنيون عـلى السيارات تحطيما وتهشيما .

(I) لاقدر اللـه

(2) سبقت ترجمتهـــا .

ــ العسكر ، العسكر !

وظهر جند الزواف · مصوبين بنادقهم حيث اثبتوا الخناجر واحاطوا بقصر العدالــــة ·

* * *

اول من استشهد ، بائع الكعك ، ذاك الذى ينصب طبقه فى باب العلوج · والذى يكنى بـ « المحروق » لالتصاق ذقنه بصدره من اثر حرق قديم ·

وكأنما عصفت العاصفة · فانهالت الاحجار والعصى على الجند والبوليس وظهرت شرذمة من نهج الرئيس جعيط · فتسلقوا السياج · وما ان قفــز الصادق فى الساحة ، حتى احس بنخزة خنجر الجندى فى ظهــره · فأهــوى اشتبك حوس ، بخشبة ، على رأس الجندى · واغتنم الصادق ذهوله فانتزع منه البندقية وجرى نحو سباط الظلام ·

واندفعت جماعة اخرى على عربة ترمفاى · فحطموا زجاجها واضرموا فيها النار · واختلطوا ساعة من نهار ·

اعتصم الوطنيون بالشوارع الخلفية · يقومون بغارات متوالية · يدوسون الزجاج المكسور ، وبأيديهم حطام الابواب وقضبان الحديد والسوائل المحرقة يهشمون السيارات وعربات الترمفاى ويختفون تاركين بعض الجثث ويخرج فوج آخر يحمل تلك الجثث ويطلق عيارات نارية ويولى ، تاركا جثثا اخرى ·

ولم تفتر المقاومة ، حتى اضطرت الادارات الى الاستنجاد بعربات الجيش عند خروج موظفيهــا ·

واشتد الحصار واقفرت المدينة ورابطت القوات برشاشاتها امــام المبانى الحكومية · وانتصب الجيش والبوليس وفرسان الجندرمة بساحة بـــاب سويقة ، حول عربة ترمفاى محروقة ، كأنها جمجمة حيوان ما قبل التاريخ ·

* * *

انتظرته الى العشاء · ثم خرجــت ·

حاصرت كوكبات الجيش جميع الساحات · واسندت بنادقها فى مثلثــات هرمية وخيمـــت ·

وبات الحرس المتجول يخترقون الشوارع على دراجاتهم الناريــة يوقفــون المارة ويفتشون الدور ·

رأت سيارة بوليس مملوءة وطنيين • وصلت بطحاء رمضان باى • وجدت النور فى بعض الحوانيت • مالت الى احداها • سمعتهم يذكرون من استشهد ومن القى عليه القبض وكم مات من الجنود • علمت ان النادى احتلـه الجيش والمقبوض عليهم فى فندق الفول ، فارتدت ، متوجهة الى باب البحر •

مرت امام كوكبة مخيمة بالبياصة • فهمت انهم يتخاطبون فى شأنهـا • فخففت خطاها • زعق بها احدهم ، وتقدم يفتشها • رفع يديها ، فوقعت اللحفة فاحست بالموت ، وكادت ان تخونها ركباتها • وصلت الايدى العابثة الى موضع جعلها تصفعه ، غير مبالية • فعاجلها بضربة من حذائه على عجزها ، انكبت لها • وقامت فارة بنفسها •

امتلا فندق الفول بالوطنيين • رأت « اشتبك حوس » مكبلة يداه فى جملة شبان يحشدونهم فى سيارة • فصاحت به :

ــ وآينه الصـادق ؟

فأجابها ان آخر عهده به فى بير الحجار • • •

ولم يتم كلامه اذ لطمه عون البوليس وزج به فى السيارة

* * *

وجدته فى مسجد نهج الباشا • مسجى مع اخوانه من الشهداء • عـلى بشرته صفرة فاقعة ، غاضا من طرفه • كأنه فى نصف منام • فاغر الفم كأنه يبتسـم •

منعوها من الارتماء عليه • واخرجها الوقاد • ومال بها الى الميضاة •

ــ المرحـوم يقـرب لك ؟

فانعقد حلقها لهذه الرحمة التى لا رجاء بعدها • وأشارت ان نعم• فرفع غطاء الصهريج وناولها المحفظة مبللة ودفعها خارجا • فضمتها الى صدرها ومضت •

ــ III ــ

ملات بصرها من برية الخضراء • نظرت الى بوقرنين المهيمن بسناميـه الاغبرين على تلك البطاح ، بهضابها وغدرانها وبسط عشبها وباقات اشجارها فى جو يغمره سحاب كثيف بلا مطر • فلا هو برد ولا هو حر • هواء لين وضياء كضياء الحلم • واتجهت نحو البنائين •

فى طرف الصنوبر شبان ، فى سنه ، من الجنـود التونسيين يتعلمـون الرمايـة •

جمعت احطابا وحشيشا يابسا ، وقعدت فى جوف هضبة • كومت ذلك الحطب واخفت فيه المحفظة وقدحت وقيدة •

احدثت النار دخانا ازرق ، ما لبث ان تكاثف ، كأنه مكبوت انطلق من قمقم • وانبثقت عنه السنة صغيرة صفراء ، تصارع الهواء ، مرتعشة ، مترددة

غمرها شعور من الخشوع والتجلى ، لما رأت وشائج من الدخان ، متمزقة ، متلاحقة ، الى النصب • فطافت به هالات من البخور •

اقترب منها احد البنائين :

ـ آش تعمل يا اميمتى ؟

ـ وليدى ، جيت ناخذ فى شوية نسمة ، بردت •

ـ نسمة حية •

عرض يديه للنار حينا ثم تركها وشانها ورجع الى اصحابه •

نظرت طويلا فى النار • طقطق الحشيش والسمار • فاشتد اللهب • وتقورت المحفظة وانفتحت عن اوراق بيضاء • فتمسحت بها الالسن ، متلمضة ، رشيقة ، مسلهبة • فاسود بياضها • واستحالت بدورها الى السنة نيرة ، والتحم بعضها ببعض واستفحلت وعلت تتسابق ، فى رقصات مائسة الى غاية فى العلا •

ذكرت ايدى الشبان ، فى المظاهرة تلك ، ايديهم ورؤوسهم تتعالى بالاعلام واللافتات ، تتعالى بالصراخ والهتاف • تتعالى هى ايضا ، الى غاية فى العلا •

حافظت على الشعلة ، ما استطاعت • فلماذا يستحيل ذلك الاتون الحار الى عدم الى فناء • تعهدته بالقش • لم تشأ ان يهدأ ذلك الحماس • ولو قدرت لغذته من نفسها • فيبقى شعلة الى ابد الآبدين • لكن تناقصت الالسن • وتركت جمرا احمر هادئا • التقطت فتاتات من السمار • انتشرت حول الموقد فانشأت ومضات ذوت هى ايضا • وهمدت فى كوم صغير من الرماد • لم يلبث ان برد بعد حين • فاغتمت لانطفائه وغمرها الياس •

وقامت نفس قوية من الريح •

فعاودها الخشوع والتجلى لما رأت الريح تحمل بعض الرماد الى ليقة النصب فيلتصق هناك •

انفتح امامها عالم علوى من النور والسكينة • رفعت عينيها الى السمـــاء وهمســـت :

ــ ياربــى ، الحمــد للـــه !

لم تعد فى عزلة • وما كانت فى يوم من الايام فى عزلة • صاح البناء :

ــ هكة توة ! ربى يهديك يا اميمتى •

ــ سامحنى وليدى • ها آنى ماشية •

وانثلج صدرها ، لما رأت الملعقة تمر عليه • فتثبته هناك ، الى الابد •

* * *

فالمتأمل فى النصب ، وهو سارية بسيطة ، ذات ثلاثة امتار تقريبا ، يعلوها هرم صغير ، يرى ، فى الاسمنت بقعة اغمق من البقية •

ذلك اثر محفظة السمـــار •

واد قريانة فى 4 مارس 1970

ب• خ•

الحضارات

شعر : محمد الحبيب الزناد

(1)

أنَـا إنْ ضَرَبَتْنِي الرِّيحُ عَلَى قَدَمِي
وَعَفَّرَ مُهْجَتِي الْإِعْيَاءْ
فِي اللَّيْلِ
فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ
سَأَصْنَعُ مِنَ الْخَمْرِ الدِّمَاءْ
وَأُخْرِجُ نَارًا مِنَ الرَّمْلِ .

(2)

مَرِيض أنَـا بِـدَاءِ القَلْبِ
وَالْحُبِّ
وَمُسْرِف أنَـا فِي المُتْعَةِ
وَاللَّذَّةِ
فَارْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ مُتَعَالِيَاتْ
وَاشْرَبُوا الوَقْتَ عَلَى نَخْبِي ...

(3)

مَـا ضَرَّكُمْ لَوْ عَرَفْتُمْ مَا كَذِبِي
وَمَـا لَعِبِي

وَمَـا مَسْعَـايَ فِي الطُّرُقَـاتْ
وَمَـا الكَلِمَـاتْ
أَفُوهُهَـا وَتَفُوهُنِي
بِهَـا أَنَـا مَرْبُوط
بِـأَكْثَرَ مِنْ فِعْلٍ وَمِنْ سَبَبِ

(4)

يَغْشَانِي جِسْمُكَ فِي شَرْخِ اللَّيْلْ
يُمْطِرُنِي بِوَابِلٍ مِنَ اللَّذَائِـذِ
وَمَـا أَنَـا بِالطِّفْلْ
وَلاَ أَنَـا بِالسَّاذَجِ
سَأَفْتَحُ مِنْكَ عَلَيْكَ بِالنَّوَافِذِ
أُطِلُّ فِيكَ بِالْحَدِيدِ النَّافِذِ
يَـا حَضَارَةً تَجْرِفُنِي كَالسَّيْلْ

(5)

هَجَمْتِ عَلَيَّ مَعَ الزَّمَانِ الهَاجِمِ
أَجْبَرْتِنِي عَلَى إِرْتِكَابِ الغِشِّ وَالْجَرَائِمِ
وَجِئْتِنِي بِمُشَطِّرِي شَطْرَيْنْ
وَجِئْتِنِي بِظَالِمِي وَقَاصِمِي

(6)

اللَّيْـلُ وَالنَّهَـارْ
يَجْـرِيَـانِ مَعِـي
يَهُشَّانِ عَلَى وَجَعِي

أحْسَسْتُ الْحَضَارَةَ فِي نَفْسِي
وَلَمْ أعِ

(7)

سَأضْحَكُ أضْحَكُ أضْحَكُ
مِنْ شِدَّةِ بُكَائِي
وَأخلّفُكَ ضَاحِكَةً بَـاكِيَةً
وَرَائِـي .

م. ح. ز.

تونس فى فيفرى 1970

الفهـم والاعجـاب

قال قى دى موباسان (Guy de Maupassant) :

« ان للكلمات **روحا** . فبينما أغلب القراء وحتى الكتاب لا يطلبون من ورائها الا المعنى ، فمن الواجب العثور على هذه الروح التى تظهر عند احتكاكها بكلمات أخرى والتى تنفجر وتضىء بعض الكتب بنور غريب ، يصعب تفجيره . وان ما فى لغة الكتابة من توافق وتشابك يخلقه بعض الرجال لما يـوحى بعـالم شعرى يعجز عن استشفافه وتوقعه جمهور الظرفاء (mondains) فاذا نحن حدثناهم عن هذا ، غضبوا واستندوا الى العقل وأتوا بالحجة ، وانكروا وصرخوا وطلبوا الكشف عن هذا الذى نؤكده . وبطبيعة الحال عبثا نحاول ذلك . لانهم لن يفهموا أبدا ما داموا لم يحسوا . ولقد استغرب أناس متعلمون ، كتاب ، أذكياء ، حديثنا عن هذا الأمر العجيب الذى يجهلونه ، ثم يبتسمون طـاوين كشحا عنك ، لا يهم ! ذلك أنهم لا يعرفون . فكأنك تتحدث عن الموسيقى لمن أصابه صمم » .

كلمات منثورة

- للاديب وجهان . وجه يلقى به الناس ووجه يلقى به فنه ومصدر الهامه .
شخصيتان متميزتان متنافرتان الى حد الشعور بالغربة ازاء فنه وازاء الناس .
كذا يظل مترددا بين قطبين لا يقر له قرار وهنا مورد أدبه وخصب انتاجه .

- شدما يعانيه المثقف حفاظا على الذات وصونا لاصالتها . صراع متجدد لا ينقطع فكأنه الربان لا يني يضبط سير سفينته يعدل اتجاهها بين المصاعب والاخطار حتى يبلغها وجهتها الحق .

- الكتاب ، من حيث الاسلوب ، أصناف : صنف يكتب وينشيء جهده ، وصنف يتحدث ويحاور فمزية الاول احكام الصنعة ونضج الروية ، وفضيلة الثاني عفو البديهة وانطلاق القريحة كالنبع الدافق لا ضبط ولا كبت . وثمة صنف ثالث مزيج مشترك بينهما وذاك الانموذج الامثل .

- أنت مثل منقطع وحيد فتعال أضمم فراغك الى فراغي وامزج وحدتك بوحدتي ونأنس بوحشتنا معا .

- لقد كفى أن تستروح نفحات الربيع وتنغمس في شمسه الوهاجة وتطوف بين الزهر والخضرة لكي تتم المعجزة فاذا أنت تستغرق في اللحظة وتذهل عما سواها وتمتد اللحظة وتتمطى فاذا هي حاضر منبسط مديد لا قبل فيه ولا بعد . ديمومة متصلة منتهى السلاسة ومطلق الانسجام .

- ميزة الفن الرفيع أنه لا يؤثرفينا بروعته المحسوسة المباشرة فحسب بل بما يشعرنا به ـ ايماء وتلويحا ـ من جمال أروع وأسمى ممتنع عن الادراك والتعبير .
تلك هي فتنة الفن وخدعته . انه يوهمنا ـ مدة لحظات ـ بتيسر المطلق وامكان المستحيل .

البشير المجدوب

المستويات الذهنية واقسام الشريعة حسب ابن رشد

(2)

بقلم : عبد المجيد الغنوشي

لقد رأينا فى العدد الخامس (فيفرى 1970) من هذه المجلة الاسباب التى حملت ابن رشد على التوفيق بين العقل والشريعة وكيف اهتـدى الى ذلـك الحجر الفلسفى الاساسى (أعنى الى ذلك الحد الذى بمقتضاه يكون « فعـل الفلسفة ليس شيئا اكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ») وقلنا ان تحديد الفلسفة على هذا النحو كفيل وحده أن ييسر مشكل التوفيق بين العقل والنقل كما انه يتطلب من كل متأول مجتهد معرفة الاقيسة البرهانية والعلوم المنطقية بصفة عامة ـ وبقى لنا الآن أن نعلم مـن سيختص بدراسة الفلسفة وهل جميع الناس مطالبون بمعرفة المناهج البرهانية والعلوم المنطقية ـ لا شك أن الخوض فى هذه الامور لا يجوز لجميع الناس ـ فما دامت استعداداتهم الطبيعية متفاوتة تفاوت مستوياتهم الذهنية فانه يتحتم على كـل صنف منهم أن يتبع الطريقة التى تلائم فطرته حتى يصل من خلالها الى معرفة أمور الشريعة ـ ويبدو ان الناس على ثلاث درجات باعتبار ذكائهم وقواهـم العقلية فمنهم أهل البرهان أى الفلاسفة الذين لا يقرون الا بالادلة الدامغـة القوية ويتدرجون الى المعرفة بالاستنتاجات المنطقية المنسقة ومنهم اهل الجدل الذين تشفيهم الحجج المرجحة ـ واما الصنف الثالث من البشر وهو الجمهور الذى تحركه البراهين الخطابية والأساليب الشعرية التى تنفذ الى مخيلتـه وتؤثر فيها شديد التأثير ـ والقرآن ـ وذاك ما يدل على اعجازه ـ يخاطب هذه الاصناف البشرية جميعا « لما كانت شريعتنا هذه الالهية قـد دعـت الناس من هذه الطرق الثلاث عم التصديق بها كل انسان ، الا من جحدهـا عنـادا بلسانه ، أو لم تتقرر عنده طرق الدعاء فيها الى الله تعالى لاغفاله ذلك مـن نفسه ـ ولذلك خص عليه السلام بالبعث الى الاحمر والاسود ، أعنى لتضمن شريعته طرق الدعاء الى الله تعالى ، وذلك صريح فى قوله تعالى : « ادع الى

سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن » (1) ثم ان كانت هذه الشريعة الاسلامية حقا وان كانت تحث على النظر البرهانى المفضى الى معرفة الله الحق فضرورى ألا تعاكس الطريقة البرهانية تعاليم العقيدة وألا تصد عن الدين « فان الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » (2) ولكن الاشياء ليست بينة جلية كما نظن ! فلو تصفحنا القرآن ونظرنا فى آياته وجدنا انفسنا امام التباسات وتناقضات يعسر حلها بالطريقة البرهانية فنقف وتتملكنا الحيرة ولسنا ندرى هل سنضحى بالايمان ونتمسك بالعقلانية أم سنلقى بأنفسنا فيه وننصرف عن العقل وقد تتفاقم حيرتنا فها نحن شكاكون فلا الشريعة ولا الفلسفة تستطيعان أن تنقذاننا من المازق ونظل بدون جدوى نبحث عن الحقيقة وعن التعقل !

لكن ابن رشد لما فطن الى هذه الشكوك المعتاصة التى قد تؤدينا الى الحكم على الشريعة أو على الفلسفة ولما كان مقتنعا باتصالهما اتصالا جذريا ، وضع طريقة عقلانية للتأويل الرمزى لاستخدامها كلما واجه العقل نصوصا شرعية ملتبسة المعنى عسيرة الفهم .

وهكذا تبدد الشكوك وتبدو الحقيقة الباطنة والمعانى الدقيقة التى رمز اليها الشارع « ونحن نقطع قطعا ان كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع ان ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى (3) وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب بها مؤمن » (4) ولقد عرف ابن رشد لنا هذا التأويل الذى من شأنه أن يضمن موافقة الحكمة للشريعة فقال « ومعنى التأويل هو اخراج دلالة اللفظة من الدلالة المجازية الى الدلالة الحقيقية من غير ان يخل فى ذلك بعبارة لسان العرب فى التجوز من تسمية الشىء بشبهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الاشياء التى عددت فى

---

(1) فصل المقال . طبعة بيروت . سنة 1961 ــ ص 34 ــ 35

(2) نفس المرجع ص. 35 ــ

(3) لقد ورد فى القاموس العربى اللاتينى الذى وضعه المستشرق الالمانى ما يلى : تأويل : Interpretatio, et tum interpretatio qua versus corani sensu aperto neglecto sensum absconditum admittit.Differt igitur haee vox a تفسير . Hace igitur (تأويل) interpretatio allegorica et mystica dici potest. (cf. Georgü Wilhelmi Frcytagü Lexicon arabico - latinum, tomus I, Halis Saxonum 1830, p. 71 et Suiv.

(4) فصل المقال ــ طبعة بيروت : ص 36

تعريف اصناف الكلام المجازى • (5) وبهذه الصفة يكون ابن رشد قد سلك ما سلكه الفقهاء فى كثير من أحكامهم الشرعية وبرر بطريقة التأويل الرمزى واستعمال البراهين اليقينية — وكأن سلطان الفقهاء وركونه اليه لم يكن حسب فيلسوفنا كافيا — اذ هو الا سلطان انسانى محدود مقيد بالنهائية الانسانية (finitude humaine) فأراد ابن رشد أن يركز محاولته التأويلية ويؤصلها بقول الا هى صريح « هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات — فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومـا يعلم تأويلـه الا اللـه والراسخـون فى العلم » (6) — •

ولقائل أن يقول لماذا لم يأت القرآن واضحا كل الوضوح ولماذا جاءت فيه آياتٌ متشابهات توهم التناقض واللامنطقية اذا امعنا النظر ونظرنـا فيهـا عن كثب ؟ ان لابن رشد جوابا فى هذا المضمار • فهو يقول ان تضمن الـوحى الرموز والمتشابه وأوهم بالجسمية وجعل للالاه أحاسيس ومشاعر انسانية • anthropopa thiques فليتمكن البرهانيون من تأويله لادراك الحقيقـة الباطنة ولتمكث العامة ملازمة لظاهره ان ليس فى مقدورها فهم المعقولات ولا الارتقاء الى ما هياتها — (7) وما دامت الشريعة ترمى الى تقويم أخلاق العامـة واصلاح حال الجمهور فمن الطبيعى أن تراعى مستواه الذهنى وتخاطب مخيلاته بدلا من عقله « مثل ما روى البخارى عن على رضى الله عنه انه قال حدثـوا الناس بما يعرفون — أتريدون أن يكذب الله ورسوله » (8) ولذلك « فالاشياء التى لخفائها لا تعلم الا بالبرهان فقد تلطف الله فيها لعبـادة الذين لا سبيل لهم فى البرهان أما من قبل فطرهم واما من قبل عاداتهم واما من قبل عـدمهم اسباب التعلم بأن ضرب لهم امثالها واشباهها ودعاهم الى التصديق بتلـك

(5) نفس المرجع ص• 35
(6) سورة آل عمران III — الآية : 7
(7) تذكرنا محاولة ابن رشد هذه بالمحاولة التأويلية التى قـام بها معاصره موسى بن ميمون الفيلسوف القرطبى اليهودى فى كتابه « دلالة الحائرين» والتى رمت الى نفس الغاية غير ان هذا الفيلسوف قد بالغ فى تأويلـه للشريعة الموسوية وتجاوز حدود التـأويل الـرمزى حتى أن « سبينـوزا (Spinoza) الفيلسوف الهولندى اليهودى (1677 — 1632) قال فـى كتابه « Tractus théologico-politique » بان ابن ميمون أول الشريعة وهو يهذى بعقله » فتفرغ اذذاك Spinoza لقضية التأويل فى كتابـه المذكور وتفهم العقائد الدينية تفهما عقلائيا مطابقا لتفهم ابن رشد لهـا
(8) فصل المقـــال ص• 38

الامثال اذ كانت تلك الامثال يمكن أن يقع التصديق بها بالادلة المشتركة للجميع أعنى الجدلية والخطابية • وهـذا هو السبب فى أن انقسم الشرع الى ظـاهر وباطن • فان الظاهر هو تلك المعانى التى لا تتجلى الا لاهل البرهان » (9) • اذن يتحتم على كل صنف بشرى أن لا يتجاوز المستوى الذهنى الذى يخصه وعلى العامة أن تبقى وفية الى ظاهر الشريعة والى ما تضمنه من معان جسمانية ومن متشابهات مادامت هذه لا تصادم الافكار البسيطة التى ظلت على سذاجتهـــا الفطرية • ولكن تلك المتناقضات وتلك الصعوبات الكامنة فى الشريعة كلمـا تجلت للراسخين فى العلم ألزمتهم حلها بوسيلة التأويل العقلانى فينفذون من وراء ظاهراتها المادية الى روح الشريعة غير انه يتحتم عليهم أن يتحاشوا مع ذلك كله الشطط والغلو فى التأويل وأن يلتزموا ويتقيدوا بالظاهر فيما يتعلق ببعض العقائد الاساسية الواضحة « مثل الاقرار بالله تبارك وتعالى وبالنبوات وبالسعادة الاخروية والشقاء الاخروى ـ وذلك ان هذه الاصول الثلاثة تؤدى اليها اصناف الدلائل الثلاثة التى لا يعرى أحد من الناس عن وقوع التصديق له من قبلها بالذى كلف معرفته ، أعنى الدلائل الخطابية والجدلية والبرهانية فالجاحد لامثال هذه الاشياء اذا كانت اصلا من أصول الشرع كافـر معـانـد بلسانه دون قلبه أو بغفلته عن التعرض الى معرفة دليلها » (١٠) ـ (١١)

ان فكرة ابن رشد الجوهرية التى تستخلص من تحليلنا تتلخص فيما يلى ان على كل انسان فهم الشريعة حسب ما يؤديه فهمه ومستواه الذهنى لهـا ، ثم كلما نجم خلاف بين المعنى الظاهر والمقتضيات العقلانية ، لزم التأويـــل فيرفع الخلاف وتحصل الموافقة بين العقل والنقل ـ ويتأتى عن هذا المبـدأ نتيجتـان •

(9) فصل المقال ص 45

(١٠) فصل المقال ص• 45ـ44

(١١) ان فكرة الاقرار ببعض الاصول العقائدية والركون اليها بدون أية محاولة لتأويلها لتذكرنا حسب قول المستشرف الاسبانى « كروث هرنندس M. Guz Hernandez بموقف الكنيسة فى هذا المضمار :

Esta actitud de prudencia de Averroes al no :
tolerar al com'un de los fieles la interpretacion de todos los textos revelados y no manifestar, salvo consulta, ciertos problemas.

« dogmàticos y escriturarios, no difiere en esencia, se'un Asin Palacios y M. Alonso, S.J., de la posicion de la Iglesia catolica » (cf. M.C. Hernandez : « La filosifià àrabe » ed. Revista de occidente, S.A. Madrid 1963. p. 282-283.

1 ـ يحجر على كل فكر أن يتجاوز حد التأويل المناسب لمستواه الذهنى .

2 ـ يحجر التصريح بالتأويلات التى تهم الخاصة الى المستويات الذهنية البسيطة ـ فالخطأ الذى وقع فيه كثير من رجال العلم يتمثل فى عدم مراعاتهم لمستويات العامة الذهنية اذ قدموا اليها التعاليم الفلسفية الباطنة المعدة للخاصة ésotériques وتوخوا فى ذلك طرقا أزدوج فيها الجدل بالخطابة والخطابة بالبرهان فنتجت عن هذا الخلط والمزج بدع مضلة وتكاثرت الفرق الكلامية والاضطهادات الدينية. لقد اذن الوقت الآن لان نقيم الحد بين الطبقات الذهنية ونفرق بين التعاليم الثلاثة ونخصص التأويل لاهله وبهذه الصفة نكون قد وضعنا الفلسفة فى اعلى درجات السلم لمكان انها تمثل المعرفة الحق والحقيقة المطلقة ، ثم يليها علم الكلام بما يتضمنه من تأويلات جدلية ومن احتمالات عقلية ، وفى آخر درجات السلم تكون الشريعة برموزها واستعاراتها وهكذا تتسلسل وتترتب بكامل النظام ثلاثة مستويات عقلية لفهم حقيقة واحدة تكتسى فى آن واحد معنى ظاهريا ومعنى باطنيا .

ثم اذا كان التأويل مسموحا بـه ومخصصا للبرهانيين فحسب فلا ينبغى أن يكون اتفاقيا ولا أن تقدم نتائجه سوية الى كل الطبقات الفكرية . لقد وضع ابن رشد للتأويل الرمزى طريقة كفيلة بأن توفق بين الدين والفلسفة اذا ما راعت بعض القوانين وخضعت لبعض المقتضيات . ففى آخر كتابه المعروف « بالكشف عن مناهج الادلة فى عقائد الملة وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيغة والبدع المضلة » يعرض علينا قانونا للتأويل مقتديا فى ذلك بمن سبقه فى نفس القضية ، مبينا لنا ما يصح تأويله وما لا يصح وان صح فلأى طبقة فكرية يجب التصريح به ـ ان الشريعة تحتوى حسب فيلسوف قرطبة على خمسة اقسام ذات معان مختلفة .

1 ـ يحتوى القسم الاول على كل المعانى التى اذا أخذناها على ظاهرها نكون قد فهمنا مقصد الشريعة الحقيقى فلذلك جميع الناس مطالبون بالتمسك بظاهرها بدون أى تأويل .

2 ـ اما القسم الثانى فانه يشمل تلكم المعانى التى ليست ظاهريتها حقيقة الشريعة بل هى لها كدليل أو كرمز يرمى الى معنى معقول ـ فلو التمسنا حله والوقوف على كنهه بنظرة خاطفة لكان سعينا عبثا غير أن محاولتنا توفق اذا ما اعتمدنا سلسلة من الاقيسة المركبة ـ فمن الضرورى اذا أن يقوم العلماء وحدهم بتأويل هذه المعانى والبحث عن معقولاتها وأن لا يصرحوا بنتائج اعمالهم الا لمن كان فى منزلتهم ومكانتهم العلمية .

3 – ويحتوى القسم الثالث من الشريعة على معان يعسر التنبه الى رمزيتها فمن الجدير اذا أن تؤول تلك المعانى وأن يصرح بها الى جميع الطبقات الذهنية ٠

4 – ويقوم القسم الرابع على معان رمزية ترمى الى معقولات – أما رمزيتها فانها تنكشف مباشرة أو بعلم قريب واما المعقولات التى ترمى اليها ، فلكى يتسنى ادراكها فانها تتطلب استنتجات مركبة معتاصة تذهب على العامة – ففى هذا الشأن يضرب لنا ابن رشد مثلا ويأتى بهذا الحديث « الحجر الاسود يمين الله فى الارض » فان كان من اليسير التنبه الى رمزيته ، حسب فيلسوف قرطبة ، فالامر ليس هينا لو تطلعنا الى المعقول الذى يرمز اليه الحديث بل لا بد من براهين عديدة لبلوغ الغاية ٠ فلذلك كله يبقى تأويل هذه المعانى وتفهم جواهرها مقتصرا على رجال العلم الراسخين فيه « فان الواجب فى هذا الا يتأوله إلا الخواص من العلماء ويقال للذين شعروا انه مثال ولم يكونوا من اهل العلم لماذا هو مثال : اما انه من المتشابه الذى يعلمه العلماء الراسخون فى العلم واما أن ينقل التمثل فيه لهم الى ما هو أقرب من معارفهم انه مثال – وهذا كأنه أولى من جهة ازالة الشبهة التى فى النفس من ذلك – والقانون فى هذا النظر هو ما سلكه ابو حامد فى كتابه التفرقة – وذلك بأن يعرف هذا الصنف أن الشىء الواحد بعينه له وجودات خمس الوجود الذى يسميه ابو حامد : الذاتى ، والحسى والخيالى ، والعقلى والشبهى – فاذا وقعت المسألة نظر أى هذه الوجودات الاربعة هى أقنع عند الصنف الذى استحال عندهم أن يكون الذى عنى به هو الوجود الذاتى اعنى الذى هو خارج فينزل لهم هذا التمثيل على ذلك الوجود الاغلب فى ظنهم امكان وجوده ٠ وفى هذا النحو يدخل قوله عليه السلام « ما من شىء لم أره الا وقد رأيته فى مقامى هذا حتى الجنة والنار » وقوله « بين حوضى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى » وقوله « كل ابن آدم يأكله التراب الا عجب الذنب » فان هذه كلها تدرك بعلم قريب انها امثال وليس يدرك لماذا هى امثال الا بعلم بعيد ٠ فيجب فى هذا أن ينزل للصنف الذين شعروا بهذا من الناس على أقرب تلك الوجودات الاربعة شبها – فهذا النحو من التأويل اذا استعمل فى هذه المواضع وعلى هذا الوجه ساغ فى الشريعة ٠ واما اذا استعمل فى غير هذه المواضع فهو خطأ » ٠ (12)

5 – وأما القسم الخامس والاخير فيضم تلك المعانى التى يعسر التنبه الى رمزيتها ولكنه سرعان ما تتضح وتتجلى مفاهيمها ومقاصدها اذا ما ثبتت

(12) الكشف عن مناهج الادلة ٠ طبعة مصر 1964 – ص 250 – 249

صفتها الرمزية « ففى تأويل هذا ايضا نظر أعنى عند الصنف الذين يدركون انه ان كان مثالا فلماذا هو وليس يدركون انه مثال الا بشبهة وأمر مقنع اذ ليسوا من العلماء الراسخين فى العلم فيحتمل أن يقال ان الاحفظ بالشرع ألا تتأول هذه ، وتبطل عند هؤلاء الامور التى ظنوا من قبلها أن ذلك القول مثال وهو أولى . ويحتمل أيضا أن يطلق لهم التأويل لقوة الشبه الذى بين ذلك الشىء وذلك الممثل به » (13)

وقد لفت ابن رشد نظرنا الى معانى القسم الرابع والخامس ونبهنا الى انها قد تتولد عنها اذا ما أولت معتقدات غريبة بعيدة عن ظاهر الشريعة فلما تقبلها العامة . « وهذا هو الذى عرض للصوفية ولمن سلك من العلماء هذا المسلك . ولما تسلط على التأويل فى هذه الشريعة من لم تتميز له هذه المواضع ولا تميز له الصنف من الناس الذى يجوز التأويل فى حقهم اضطرب الامر فيها وحدث فيهم فرق متباينة يكفر بعضهم بعضا ، وهذا كله جهل بمقصد الشرع وتعد عليه . (14) فلكى نتحاشى هذه النتائج الشنيعة ونكون قد وفقنا الى التوفيق بين الدين والفلسفة فضرورى أن يحتفظ البرهانيون بتأويلاتهم وألا يضمنوها مقالاتهم الجدلية أو الخطابية ثم على الجمهور أن يتمسك بالمعنى الظاهر للشريعة وأن لا يشغل باله بالتأويلات التى قد تضربه وتضله أكثر من أن تهديه الى سوى السبيل .

ع. غ.

---

(13) نفس المرجع ص 251 ــ 250

(14) نفس المرجع ص 251

أناشيد إلى ذات أنامل صغيرة

شعر : الطاهر الهمامي

1 ـ نشيد الدم :

بَقيتُ أحبُّهَا
وأحبّ غلقَ البَابْ
عَلَيّ
وَحَرّ الصّيْفْ
وإطلالَتَها
وملأهَا عَيْنَيّ .

بَقيتُ أحبُّهَا
وأحبّ سَلاسِلَ الغُرْبَه
تَشُدّني
وأستعذبُ الايّام الصّعبه .

بَقيتُ أحبُّهَا
وأحبّ كَآبةَ الاسوارْ
وصمتَ اللّيلْ
ووحشةَ الغُرَفِ المَنْسيّه .

بَقيتُ أحبُّهَا
ولَمْ يمحُهَا الزّمنُ الماحِي

بَقِيتُ أحِبُّهَــا
وأستحلي عميقَ جِـرَاحي
بَقِيتُ أحِبُّهَــا
وأبحثُ مِلْءَ ذاكـرتي
عَنْ تفـاصيلِ مَقْدَمِهَا الصّباحيِّ ...

[... كخفقِ جَنَــاحِ طَائِـرٍ بحْرِي
كـريح مرْوحَةٍ حريريَّة
تهفـو علي صـدرِي
تحنُو عليَّ
فيـورقُ الإسمَنْتْ
ويجرى الدّمُ فِي يـدِيّ !
أحِسُّنِي قُمْتْ
أعـانِقُ وجْهَ الارض كَأنَّ مَـا أعدمْتْ
ولاَ جَـدّتِ المـأساةُ فِيّ .

[... كَانتْ أنامِلُهَــا الصَّغيرَه
تُقَطِّرُ فِي كَأسِي
وتغْـرِزُ فِي لحْمِي
وَقَـدْ تُـدْمي ...
تَشُـدّ عَلَى رأسِي
تُـرَمِّمني وتبنيني
وتَجْمَـعُ شمسي
مِنَ القيعــانِ . تَجْمَعُنِي
وتُبْـدِعُ فِي خلقي وتكويني !...]

2 ـ عذابات إلى الزيتون الدافئ :

هـذا العَالمُ ينهارُ على كَتِفيّ .
ينهَـارُ من جديد
يتدحرج فِي عينيّ
ويتكدّسُ عليّ .
هـذا الظّـالِمْ !

أنَـا مريضْ
يَـا ممرّضتي البعيده
أنَـا مـريضْ
يَـا الصّديقةَ الفريده
ويَـا الأملَ العريضْ
أنَـا مَـريضْ
يَـا حبيبةَ المنْفَى ويَـا رفيقةَ الْحَضيضْ
أنَـا مـريضْ
أنقُلُ عـذابـاتي
أجرّ خطـايَ ، وأحمِلُ جِـرَاحَـاتي
أنَـا مريضْ
ويخيفني الآتـي
أنَـا مَـريضْ
قطّـري من دفءِ عينْيك على هُدْبي
دفئِي كلماتي
وآنفضي شجرَ الزّيْتُونِ على دَرْبِي
ضوئِي عتَمَـاتي
وتحسّسِي هَلْ يَنْبُضُ ... شعبي

وآشرَ بي نبضاتي

3 – « إذا مت ... فلا نزل القطر ! » :

هبي أنَّ أشعاري ستبقَى
تُشَمِّسُ عُمْرِي الغائمْ
ستَخْرُقُ حَوَاجِزَ اللَّفْظ
وتَغْتَسِلُ بِالنَّار

هَبي أنَّ افكاري
ستَبقَى تُزَلْزِلُ هذا العالَمْ
وتُغَيِّرُ تَارِيخَ الأَرْضْ
هَبي . هَبي أنَّ لي صوتْ
سيتلو على الباقين إعْصاري

فَأنَا يَا منقذتي
يَا مُنْقذتي أخْشَى
أخْشَى المَوْتْ
أخشى فُرْقَةَ الجَارِ !

ط. ه.

تونس فى / فيفرى / 1970

نكـــــهل

قصة بقلم : رشيد الغالي

فتح حامد خزانة الملابس فأحدث بابها صريرا أبح كصوت عظام نخرة ، أيقظها معول من سباتها ، وبقي ينظر ، ينتقي بدلة عطلته الاسبوعية ... ثمّ نظر إلى المرآة ، فبان له هيكله ... فقد عراه شيء كالانتفاخ أو التميع ، فأغمض عينيه لحظة ثمّ مال إلى ثيابه يرتديها ...

لقد كان فيما مضى يترقّب يوم عطلته الاسبوعية بشوق كبير حتّى إذا حلّ يوم السبت تأهّب لا ستقبال ليلته الاسبوعية ، ليلة الصّخب والاحتدام ... أمّا الآن فإنّ هذه العطلة لم تعد تثيره أو تستثير فيه ومضات الانتظار المرتعشة ، اللّذيذة ...

والتفت ، بعد حين ، إلى زوجته ... ؛ إنّها مع أطفالها الثلاثة تساعدهم على ارتداء أثوابهم ليقضوا ليلتهم عند جدّتهم ... كانت الامّ منحنية على إبنتها ترتّب لها ملابسها ... يبدو وجهها أكثر آستدارة . عليه شيء من الترهّل ... أمّا البنيّة فقد كانت في آنشراح الطفولة ، جذلى كالرّاقصة إلى نفسها في خلوة آنفتاح وحبور ... فهمس في سرّه : « إنّ الاطفال يحبّون الشيوخ كحبّنا للصّغار ، للشّباب ، ككراهيتنا للكبر ، للشيخوخة . » وجاءته زوجته بعد حين تحدّثه عن نوادر سلوى . إبنتهما ، فكان ينظر إليها كالذاهب في سورة أخذ أحلام أسطورية ، ثمّ آبتسم مجاملة ... ثمّ ساق السيّارة ... نزل الاطفال بعد حين متصايحين نحو بيت الجدّة ...

بقي هو في السيّارة إلى أن جاءت زوجته فجلست بجواره وقد تكشّف جانب من فخذيها ... فوضع راحتيه على مقود السيارة وراح

يحرّك أصابع يديه بدون وعي . يصطخب فيه سأم كبير ... قال لها بعد حين :

– أين نقضي هذا اليوم ، الجوّ صاف ودافىء .

قالت له :

– في الخلاء ، في الغابة ، بعيدا عن البنـاء .

وفيما كانا على ذلك طالعتهما فتاة في السابعة عشرة من عمرها جميلة ، جميلة ... كانت تسير ، كالطّيف يخطو في الفضاء ، حالمة لا تطرف ... وأحسّ بزوجته تتبعها ، بعينيها ترمقها ، فمال إليها برأسه حتّى تلاقت أعينهما . كانت عيناه في إتّجاه أفقي فوق عيني نادية ، زوجته : عيناها لوزيتا الشكل تنتهيان بعقفتين سوداوين ، آرتخاء على الجفنين ... شعر ناصيتها يلامس الحاجبيْن في فوضى وغزارة ...

ونزلت عينا نادية إلى رقبة زوجها المائلة : الحنجرة ناتئة على التواءات الجلد من أثر الميلان ، شريان غليظ ينبض ، إنتفاخاته متوازية ، رؤوس تجاعيد متفاوتة العمق يخفيها جانب من رقبة القميص ، خطّ آرتفاع الكتف الايمن أعلى من الايسر ...

قالت له بعد حين في دعابة متكلّفة :

– أراك تشيخ ، وجسمك إلى الانطواء يدنو .

فقـال :

– قد نستغني عن الجسد وننقطع إلى الحسّ ، إلى الاستبطان ...

ولمّا لم تجبه أردف قائلا :

– آنظري إلى البقرة كيف أنّها تتحسّس حشيشها بأنفها رغم أنّ لها عينا كبيرة ! فابتسمت نادية في شيء من الاقرار ، فأضاف :

– هل تساءلتِ يوما لمَ خُلق للدّيك لسان ؟ هل يتطعّم به الحبّة قبل أن يزدردها ، فإن كانت وظيفته غير التذوّق فلماذا كان في شكل اللّسان وكان الفم موطنه ؟

وسرّحت نظرها أمامها ... وسارت بهما السيّارة ...

قالت له :

– ما ترى لو نبدّل سيّارتنا هذه بأخرى أنيقة ؟

وطال سكوته حتّى ثقل على نادية ... وانفتحت أمامهما حقول الزيتون خضراء ... قالت له :

– لقد مرّت علينا أيام سود تبعث الغمّ والحزن في النفس ، وها هو الخريف يمنحنا يوما ربيعيا دافئا ... وانطلق صوته في همهمة لحن شجي ، فقالت مداعبة :

– هلا تستيقظ فيك مشاعرك متّقدة حتّى وإن كانت لك تلك الفتاة ؟

فقال :

– أية فتاة ؟

– تلك التي مرّت بنا منذ حين .

– قد يكون ذلك كانتفاضة الميت قبل أن يموت .

– تشبيه بشع .

– قد يكون ذلك .

– بل لانّ رائحة المرأة لصنف من الانوف لا لكلّ أنف .

– قد يستعصي المرء أنفه ليستنزل فيه الحس .

وترجلا في أرض أريضة شجراء ... ، أشجار الرّمّان والبرتقال والزيتون في عرسها ترمي بحملها إلى الشمس في سخاء دفق . وامتدّ البساط في أرجلهما ناعما رخيّا ... ، وترنّحا تحت شجرة زيتون استدار جذعها في انتفاخ عظمة ... وأمرّت نادية يدها على الجذع : أجلاف نخرة تنفرج عن قشرة ذات خطوط سوداء كالتراب المحروق ، هي مرتع نملات سائرة ... ، ورفعت رأسها فرأت آثار قطع لغصون كبيرة ، تبدو مستديرة ، متشققة ، جافة في صلابة ، تحوط بها

نـواتيء قميئة متـكوّرة ، لـذؤابـاتهـا خضرة بـاهتـة تخـالطهـا سمـرة زاهية ... قـــال لـهـــا :

– لقـد بُترت هـذه الشجـرة بتـرا . أنظري .

فقـــالـت :

– أرى ، على رأسهـا ، أغصانـا وليـدة . تتفـرّع في تقوّسهـا ريّانـة ، نـديّة . خضـراء .

– تـلك نتيجـة البتـر . وستلـد هـذه العجـوز الصامتـة زيتـونـا منعشا رغم إفـراط شيخـوختهـا .

– لانّهـا لا تحمـل في بطنهـا وإنّمـا في أصابعهـا ولا تـرضع بثـديهـا وإنّمـا بقشرتهـــا .

– بـل لانّ أمّهـا ، الارض ، متـولّدة وليـدة ، متجدّدة جـديـدة ، مخصب خصيبـة .

– مسكينة أمّي ، لقد أقحط حجرها وجفّ بطنها بـدون عمر ...! أنظر إلى هـذه العجـوز المتهـالـكة . كيف أنّهـا تلـد أفنـانـا وثمـارا !

– لانّهـا ذات وحـدة أو لانّ وحـدتهـا الـذاتيـة كـامنـة فيهـا ليست في حـاجـة إلى لقـاح أو تـزوّج ليكون خلقهـا ، إنّهـا تفجّـر بـدون أن تفجـر .

– بـدون لـذة أو حنيـن أو صبـوة تمـزّق .

– ....

ورنـا بعيـدا : « ألا بـدّ من الخـرق والتمزّق لتكون اللذّة ويكون الحنين ! » . وجـاءهمـا شيـخ ، صاحب الحقـل ... قـال مفتخـرا :

– لقـد رعيتهـا شجـرة شجـرة حتّى كـانت إلى مـا تـريـانهـا عليه من جمـــال .

فـابتسم لـه حـامـد ثـمّ قـــال لـه :

لكأنّك لم تفعل شيئـا .

فرفع الشيخ إليه عينا كالشوك حادّة . فأردف حامد :

— لانّك لم تلد شيئا ولكنّك ربيّت ربيبـا .

تأفّف الشيخ في آستغراب ثمّ هردب إلى مستقرّه من شجرة صافية ظلالها . فبقيا يرمقانه ... ثمّ قالت نادية :

— انظر ، حبيبي ، إلى البلى . يعيش الانسان على الامل شابا وعلى الحلم عجوزا ...

كان الشيخ يبتعد وقد برز انحناؤه واتئاد خطوه ، فكان رأسه كأنّه إلى رياح متكاسله ، مائلا ، ثقيلا بياضه . وواصلا طريقهما ... قالت له بعد صمت :

— « لقد نزل بحيّنا ، منذ أسبوع ماسح أحذية ، قصير القامة ، بدينا ، غليظ الاصابع ... كان يجلس أمام العمارة الّتي تقابل بيتنا يترقّب حرفاءه ... وكان يحلو لي أن أرقبه من نافذتي ، فيبدو لي كالنائم يقبع على كرسيه القصير بلا حركة كاليائس في خموله ... ، والطريق أمامه في حركتها لا يهزّه ما عليها من تلوّن في مشاهدها ...، وله قطّ أهوم ، أفطس ، أسود ... يجلس القطّ في حضن صاحبه فيلاطفه في صمت . وقد رأيت هذا القطّ ينام بجوار هذا الرّجل على أعجب هيئة : كان يضمّ قوائمه إلى صدره ويميل بأعلى رأسه حتّى تبرز كلّ قسمات وجهه ، وينام على هذه الصّورة فإذا ما تأملته وجدته يشبه كثيرا صاحبه . ويبقى الرّجل إلى صمته حتّى ينزل عنده حريف. وقد تراءت لي منذ حين صورته فقلت : كيف تكون المرأة لهذا الصّنف من الرّجال ؟ ثمّ رأيته إلى غادة حسناء في اصطراع سكون وخشونة ، في حمم لواعج فوّارة خرساء تحتدم وهّاجة ، تعذّبه إلى الالتواء...، ثمّ يكون الانحناء فالافراغ... مسكينة تلك الغادة ، إنّها تقف على الاوج بلا آرتواء أو هي في هدهدة ارتواء ناقر ، راعش ، بعده بعيد ، وعمقه عميق ..

وترقّبت نادية تعليق زوجها على حديثها ولكنّه لم يتكلّم ،

فانطلق صوتها في لحن شجي ... ورأيا حدأة سوداء ، تحلّق بعيدا في الفضاء ، في تأنّ حتّى لتكاد تقف ... وأخذا يتبعانها ... وتصعّدت ، فجأة ، إلى خياله صورة زوجته وهي في ميعة العمر ، تمرق أمامه طيفا رائعا ، في غلالة بيضاء . ثمّ آستبان له هيكلها واضحا ، فكان ممتلئا في رشاقة وجاذبية فتنة ، تخطر أمامه في طغيان أنوثة صخّابة ... ، ثمّ آنطفأت هذه الصّورة لتبرز صاحبته في غلالتها البيضاء ذابلة تذبل... تغيض نضارتها شيئا فشيئا إلى أن نتأت العظام واستقامت ثغرات جسدها في قبح ، قبيحة ، قبيحة ... فحوّل عينيه فإذا بهالة حولها في لون غسق صاف تتهيّل في استدارات ، في رقص موقّع ذي بَتْرٍ واهتزاز يمرّ عليها فيركبها تراكبا منسّقا ، بديعا .

* * *

... وانتهيا في تجوالهما إلى بئر مهجورة ... كانت البئر ساكنة ... وكانت جوانبها متجوّفة ، متبزّلة تبدو هشّة ، متفتّتة ، تشعر بوحشة البيت المتروك الّذي تقادم عهده وفني أهله ... وأطلاّ إلى قعرها ... كانت إحديدابات حيطانها داكنة في لون الرّماد المحروق يشتد سوادها ويعمق كلّما آمتدّ معها النظر ... والتفتت نادية إلى صاحبها فبان لها وجهه النّاظر إلى الماء بيضوي الشكل ، ساكنا ، مهيبا ... والتفت هو إليها ، فإذا شعرها المترامي إلى المهوى يستر محيّاها ولا يبرز منه إلاّ ظلّه ...

... ورمت نادية حصاة ، فتناهى إليهما صوت كالسقط الاجوف عريض قراره ... وتلاقت عيناهما ، فابتسما ...

* * *

... واربدّ الجوّ في جهة الشمال ، ثمّ كركر الرعد كركرته الموحشة ، فقالت لحامد :

– إنّي أحسّ بغمّ يثقل علي ، ثقيل ...

وعادا أدراجهما ووبل المطر يلاحقهما . فالتجآ إلى السيارة . كانت خيوط المياه تنزل سريعة لتتكسر على زجاج السيّارة في تنطّع ،

فأسندت نادية رأسها إلى ظهر المقعد تنظر إلى السماء ... فقال حامد :

ـ إنّ الخريف لا لون له .

* * *

... كانت السماء غبراء تتراكب عليها سحب زرقاء ، داكنة ، كعمق بحر مترجرج ... ، وكان الجوّ كالحيرة ... كالحيرة المحتضرة ، يغفو أسود في تململ قاتم ... ، وكان رشّ المطر كالاجهاض ، سريعا ، ناقرا يلفّ الارض لفّا محموما فيُنْبِت وحلها ، فيضمّها كاللعاب ثقيلا ، فإذا بسطحها كلحم نتن متقرّح ... ، وإذا بوجهها كأنثى تشهّت فتفجّرت فيها نداءاتها معصرة ، فاستلقت للفجور ذائبة رغبة إلى الاغماء ، في تفطّر إلى الموت ، في تفسّخ إلى الهوَع ...، فعراها قبح الهوس والاغراق ...

قالت له نادية :

ـ إنّ الارض وَحْمَى ، ولا أطرف من إمرأة راغبة في رعونة ، حرون ؛ شهوتها لا تحدّ ورغبتها بلا نهاية ، وكراهيتها كالموت بدون صوت ، وصدودها كالرّعدة تتصعد بدون آنثناء ...

ثمّ أضافت بعد حين :

ـ ألا ترى الخريف بعلا فحلا ، جلاّبا للأنثى لا يقاوم رغم رداءة أحواله وبشاعة طفوره ؟

قال بعد صمت :

ـ عجبا للخلق لا يكون إلاّ من البشاعة !

ثمّ أضاف بعد حين :

ـ آنظري إلى بعث الجذور في صلب الارض ، إنّه تفزير وتفكك فتقطع ، ففناء في الخلق . أكذا آلتئام الخلق في الارحام ؟

ثمّ أردف :

ـ وألعوبة الجمال ؟

قالت نادية مبتسمة :

ـ الجمال نبت دافق دفّاق كرعشة بين الوطاة إذا حطت رفعت ، إنّه ...

وأغمض لها حامد عينيها . ثمّ مال يضمّها مغمض العينين ، فقالت له :

ـ أتذكر ؟

قال بين شفتيها :

ـ خريف تلك السّنة ، أذكره كما أذكر حلما حزّني هزّته ثُمّ انطفأ .

قالت :

ـ إنّ حضوره فيّ أخذ يتضاءل حتّى ...

فقاطعها :

ـ ككلّ شيء في الخلق ينطلق حارّا وينتهي إلى القرّ .

ـ ألا يمكن لنا أن ننهي النّهاية فنغيض في دفء وليد يستعر دوما ولا ينثني ؟

فالتصق بها في لثم ... فابتسما على غرار السعداء ...

* * *

قضى حامد هدأة من اللّيل في بيته ثمّ غادره إلى شوارع المدينة بدون غاية مرسومة ... ، وامتدّت الشوارع أمامه بأضوائها المختلفة ألوانها ... ومرّت به إمرأة تدخّن في تحدّ وعجب ، فرماها بعين ثمّ عرّج على حانة وطلب شرابا ... وقضى وقتا في المقصف في لهو ومرح ، ولمّا أخذ طريق العودة إلى البيت أحسّ بتجهّم فانثنى إلى قلب المدينة يطوف في شوارعها شارد الذهن ، مهموما ... ، وتوقّف امام ناد ليليّ : كان الباب منفرجا قليلا ، يبدو داخله فارغا ، تشعّ منه عتمة وروائح دافئة ... روائح ليست بالطيّبة ولا بالكريهة وإنّما

تشعرك بتطعّم لـذيذ تستطيبه ثُمّ سرعان ما تكون إليه أنيسا . فتندمج في عبقه ... ودخل إلى البهو فتناهت إليه موسيقى كالهتافات المتنافرة ، المتقابلة ، المتصادمة ... ، وكان النّور داخل النّادي منطمسا ، أشهب في انطفاء لا يبرز من الحاضرين إلاّ خطوط هياكلهم العامّة . وكان حامد إلى كأسه رفيقا ، حميما ... رفع نظره إلى أقصى القاعة فإذا بحلبة الرّاقصين في حركتها الدائبة . وقد لاحظ أنّ رواد هذا النّادي كهول صلاب ؛ أمّا النّساء ، هنا ، فهنّ أنيقات ، يعرضن أجسامهنّ بكياسة ، في غبش ليل لرجال في سورة انتشاء . واقتربت منه إحداهنّ ، فدعاها ، فمدّ إليها لفافة تبغ فمدّت إليه ثغرا باردا ، طريّا ، كخفق جناح مبتلّ أو كدمعة أسالتها نسيمات سحَر بارد . قالت له :

– هلا نرقص ؟

وانضمّا إلى الرّاقصين ، فالتصقت به ونامت على كتفه ... كانت تصل إلى أنفه ، من حين لآخر ، هبات عطر قوي ... قالت له :

– أترغب في النّوم مع نساء مثلي .

قال :

– ما تعنين بنساء مثلك ؟

– أعني نساء اللّيل .

– كيف لا يُرغب في بنات الليل والصّخب ، بنات الليلة الواحدة؟

وصمتا إلى إيقاع الموسيقى ...

قال لها وهما يعودان إلى المقصف :

– أنتِ مقرورة . ألم تفعل فيك الكحول مفعولها ؟

فرفعت إليه عينا فاحصة ، فطلب لها كأسا ، فأفرغته ، ثمّ كانت لها كؤوس ، وكان له معها حديث ...

* * *

دخل منزله ففتح شرفته وأسند يديه على حافتها يدخّن . كان السكون شديدا ، وكانت البناءات تتوضّح معالمها شيئا فشيئا ، فرفع رأسه إلى السّماء فإذا هي صافية تزرقّ قليلا ، قليلا ... وأحسّ برأسه

يثقل ... وباغته صوت جرس ساعة طويلا ، مديدا ، ملحّا ينطلق من العمارة المقابلة ... ثمّ انبجس نور من إحدى النّوافذ ... وانتهى اليه صوت محرك شاحنة نقل يطفر في شرود ، فلوى رأسه إلى داخل الغرفة : زوجته تنام .

وأحسّ بوقع أقدام على الطريق ، بطيئة . إنّه رجل بدين خرج يسعى . فبقي حامد يتبعه ، فما إن خطا الرّجل خطوات حتّى سعل بصوت أجشّ ، مغطوط ثم تفل بصاقا ذا فقاقيع ... أمرّ عليه الرجل رجله اليمنى ثمّ تابع سيره ...

انزلق حامد في فراشه وتدانى من زوجته ، فتمطت ثمّ عادت إلى هدوئها ، إلى نومها .

... وعادت إليه صورة صاحبته في النّادي الليلي ، تنبض حيرى ، تعبّ كأسها وليلها في جنون ، فإذا هي كعرائس الاحلام شهيّة تلتهم الزمن في دفء وصعق ، ودوار فعل ، وعفو خاطر ... ، ثمّ رآها إلى بؤسها تنام في لوعة ولوع وهزّة توق ...

وسطع النّور في النّافذة أبيض ، فضيّا . فهمس : « إنّه فجر آخر ... » ورانت فيه ليلته كلمسة شعور خافقة فاغمض عينيه هامسا : « لِتَبْقَيْ لقطا لقيطة . » . وهدهده استرخاء فنـام ....

ر. غ.

دعوة للعشق والخشوع

شعر : أحمد القديدي

يَـا جسدَ الديبَـاجْ
يَـا فاكهة بريَّهْ
يَـا لذة مُلُكيَّه
آمنحيني حبًّا قديما كقرطاج .

* * *

حملتُ لكِ قلبي على كَفّي
أعطيتُكِ حُبًّا كعمق البحرْ
غنيتُ لكِ بصوتي المكدود
بكيتُ دون رغبة في البكاء
أهرقتُ ماءَ عينيَّ من أجل عينيكِ
بكيتُ منكِ إليكِ
فأوصدي أبواب الحوار المجدبْ
وأحبِّيني في صمت المعابد البوذيه
يَـا واهبتي ألمي
يَـا معلمتي معنى الحريّه .

* * *

تَـأمّلي كيف كان الصّمت
أثْرَى من الحوار

كيف كـان
هـروبا من شيخوخة العـالم
من ثرثرة النّفس الكاذبه
من عَجْزٍ هذي اللّغة الراهبه
كيف كان مجرّد فـرار
من قُصور الحرف الواجم
من فخاخ التدليس والتّكرار .

* * *

تأمّلي مـا أروع هذا الحُلُول
ونحن في خشوعنـا
رحلتُنـا كانتْ بدون وُصول
لا تطمعي في رجوعنـا
نحن كسَّرْنـا معدنَ الزّمن الواقفْ
وأحرقنـا اللّغة الملعونه
أنظري هذا الرمـاد الزّائف
وأنقاض الكلمات المجنونه .

* * *

أحبُّكِ ألَمـا يوقظ إحساسي
وحُلمـا يراود نُعـاسي
أحبّك يـا مُعذبتي ومُتْعِبتي
جسرا أعبره ولا أراه
ضوءا يحملني على مداه
يـا أنتِ يـا صلةَ الضّالين بالله .

* * *

يَـــا راحلة فِي جسمِي
يَـــا غــائـرة فِي خلايـا لحمِي
يـــا منقذتِي مـن الضّلال
كـالـزّهـرة الملعونـة انبتِي
وعَــرّشِي فِي حنـايـا غـربتِي
وانطقـي بِـالحُبّ أو فـاسكتِي .

* * *

العـــالـم لا يتحـرّكُ بِالحَـرْفْ
فَعَبِّـرِي ،
عَبِّـرِي ،
بِـالعُنْفْ

أ. ق.

مارس 1970

الكتابة هي التفكير في الكلمات

قال الفيلســوف باشــلار (Bachelard)

« ان ما يمليه الناقد على نفسه من وظيفة هى من قبيل التمسك «بالمحظورات البلاغية » • اذ هو يحجر « وظائف المراقبة » • ذلك أن « الكلام المكتوب » الذى هذبه كما يجب الاساتذة والنقاد ، هو موضوع تحت نوع من الرقابة المتواصلة من الرقابة الخاصة من رقابة مشدودة بصورة من الصور الى القلم ، الى نوع من الهول (Terreur) آخذ بالنفس يحجر حبـر كل كاتب ناشىء • وهـذا الهول يفسد الحياة الادبية من أصلها • اذ هو يمكن هذه الرقابة الخارجية فى الظاهر من أن تتغلغل فى أعمق أعماق العبارة • ذلك ان هذا الهول أبعد من أن يعين على انطلاق مجهود الخلق الشفوى المتناهى بل هو يعوقه • لهذا يمكن ان نكون على يقين من أن أستاذ البلاغة أو هذا الهول الذى ذكرناه يتسبب فى طرح شىء ما من الخيال الشفوى • والهول ، حسب المفهوم البرقسونى ، هو ما « يجسم » التعبير فيكون حاجزا أمام « انطلاقه » •

الفنان ... هذا الكائن العجيب !

بقلم : نور الدين بن بلقاسم

لقد تحدثت فى بحثى السابق (I) « **بين الفن والجمال** » عن التناغم فى العمل الفنى ، وما يتطلبه هذا التنغيم من ايحاءات جمالية من اللازم توفرها فى العمل الفنى ، حتى يكون له بذلك صلة متينة بذات الفنان ، باعتباره يحاول التعبير عن احساساته بواسطة ما ينتجه ، وحتى يكون ذلك الأثر ، يحمل فى أطوائه بذرة الوعى الاجتماعى للآخرين ٠

وفى هذا البحث ، سأتناول مسائل أخرى لها علاقة قد تمس المسائل السابقة من بعيد ، ولكنها تتصل اتصالا مباشرا بالفنان ٠ هذا الكائن العجيب٠

وأول ما أبدأ به هو طرح السؤال التالى : هل يمكن لعمل الفنان ان يكون عقليا ؟ وهل يتناقض هذا مع قولهم من أن الفن لغة العاطفة ؟

ان الجواب على السؤال الاول لا يعنى أن عمل العقل فى ميدان الفن هو كعمله فى ميدان الحسابيات مثلا ٠ معنى ذلك ان العقل لا يعانى الصور التى اثارت انتباه الفنان مجردة عن احساساته وميوله ، وعن العوامل الخارجية التى اثرت فيه ، لانه بذلك لا يمكن أن تتوفر ما أسميه « بالروعة الفنية » التى يكون لها الفعل السحرى على الجمهور ٠

انما عمل العقل فى ميدان الفن هو التحكم فى دفق الاحساسات التى تثيرها العوامل الخارجية ، وتنظيمها بصورة متسلسلة ، يبدو فيها التتابع المنطقى ، الذى من شأنه أن يوفر التلاحم بين أجزاء العمل الفنى ٠

وهذا التلاحم كثيرا ما يحقق التكامل الجمالى بين اجزاء الأثر ، الا أن هذا لا يحدث عادة الا اذا وعى الفنان وجوده وعيا كاملا ٠ والوعى عندى مرادف للاحساس ٠ فهو يقظة مستمرة ، وتفاعل دائم يصاحبه عمل ٠

(I) مجلة « الفكر » ــ السنة I5 ــ العدد 2 ــ نوفمبر I969 ــ ص 49 ٠

وهذا كثيرا ما يضمن للعمل الفنى « معرفة غيبية مدهشة ببعض القواعد الفنية فى حقلى الايقاع والتأليف بنوع خاص » (1) ٠

فاذا ضمن الفنان تفاعلاته مع العالم الخارجى « بصدق » فى أثره ، فاننا كثيرا ما نشعر بأن وراء ذلك الأثر فكرا ثاقبا يتلمس قضية من القضايا ، وروحا متيقظة تهفو الى حلم من الأحلام ٠

فالعاطفة توفر فيه الايحاء الجمالى ، والعقل يوفر فيه التنظيم والمنطق ، اللذين يسايران منطق الحياة ٠

لذلك فهو لا يكفى الخيال الخصب ، والشعور النافذ الرقيق لكى ينال الأثر الفنى الرضا والاستحسان ، بل لا بد أن تخالط هذا ذقة فى التفكير ، تزدهر معها الحياة الفنية ، التى تنمو وتتسع « **بالاشراق المفاجىء** » الشبيه باشراق المتصوفة ، والذى يكتشفه الفنان فى ذاته بفعل التفكير المستمر فى موضوعه ، قبل الشروع فى تنفيذه ٠

وصفة الاشراق هذه تخضع لعوامل عديدة تتصل بنفسية الفنان **أولا** ، وبالمحيط الذى يعيش فيه ثانيا ٠

فقد يستطيع الفنان هضم ما فى محيطه من تيارات اجتماعية وسياسية واخضاعها لعملياته الفنية وقد لا يستطيع ، وهذا يرجع الى عدة عوامل تتصل اتصالا مباشرا بدراسات علم النفس ، وسيتضح هذا فيما بعد ، عند الكلام على مشكلة « **التقمص** » لدى الفنان ، وسيطرة الأنا الأعلى على بقية الغرائز الأخرى ٠

وقبل المضى فى البحث علينا أن نبين أكثر فأكثر كيفية « الاشراق المفاجىء » وهو الذى يعبرون عنه بالالهام ٠ فما هى العوامل يا ترى التى تساعد على انمائه ؟ ؟

لا أكون مشطا عندما أقول أن أهم عامل هو ما سماه علماء النفس : **بالنشاط النفسى** ، وأفسره تفسيرا خاصا : بأنه ذلك التفاؤل المستمر ، وذلك التشبث بجدية الحياة وجدواها ، وشعور الفنان برسالته كفرد لـه دوره فى الحياة

---

(1) كتاب المذاهب الأدبية الكبرى فى فرنسا ـ تأليف فان تيغيم ترجمة فريد انطونيوس ـ منشورات عويدات ـ بيروت ـ لبنان ٠

الاجتماعية ، كل هذه من العوامل التى تحدث توترات فى نفسية الفنان ، وبالتالى توسع من نطاق تفكيره ليلم بقضايا عصره ، ويتفهم اساليبه الحياتية ، ونظمه الاجتماعية ، وهذه عناصر اولية ينطلق بواسطتها من الواقع الاجتماعى الى واقعه الخاص ، ومما هو معلوم فى عالمه المعاش الى ما هو مجهول فى عالمه المعقد ٠ فيحدث عندئذ ما أسميه بعملية « **الاستبطان** » وهى التى تؤدى بالفنان الى ادماج هذه القضايا فى آثاره ، وعملية الاستبطان هى عبارة عن استحضار الخبرات والتجارب السابقة من مخزون اللاشعور ، وانتقاء ما يفيد منها فى تلك العملية الفنية بالذات ٠

وهذا يكون بصفة خاصة فى عملية الخلق الادبى ، لأن الاديب يحتاج الى مراجعةِ معلوماته السابقة أثناء الكتابة ، سواء كانت متعلقة به أو بالآخرين ٠

ولا يمكن ان نتحدث عن عملية الاستبطان هذه الا مع الذين لهم حظ من الموهبة والاطلاع الواسع ، لأنها ترتكز على خصوبة الذات الفنانة ، وأعنى بذلك كثرة التجارب التى يكتسبها الفنان ، هى التى ترسم فى ذهنه نماذج بشرية معينة يستطيع تخيلها اثناء الكتابة بصفاتها التى تميزها ٠ فيصف المجرم بانحرافاته النفسية اذا كان هذا بطلا لقصة ادبية ، ويرسمه بملامحه القوية العنيفة اذا كان هذا انموذجا اجتماعيا فى لوحة فنية ٠

وهذه نقطة من نقط الالتقاء بين الفنان والاديب ، فالاول اثناء رسمه لشخصية المجرم مثلا ، يصوره ككل ، ولكنه يلح على تقاسيم وجهه ليدلل بذلك على اجرامه ، وانت عندما تتأمل اللوحة تستطيع التعمق فى أغوار نفسيته ابتداء من المامك بهيأته الخارجية ٠

اما الثانى اى الاديب ، فهو يلح على وصف المجرم وبيان نظرته للحياة من خلال أعماله ، وبامكانك أن تتصور هيأته الخارجية ابتداء من معرفتك لنفسيته٠

فالفنان يبين لنا ظواهر الموجودات لنتسلل نحن الى اعماقها من خلال الابعاد الفنية ٠

اما الاديب فيرسم لنا بواطنها لنكتشف بأنفسنا حالتها الظاهرية ٠

ولعل هذا سيزداد وضوحا فيما بعد ، عندما أقارن بين الفنان والاديب من ناحية استعمالهما لمادة الفن (I) ٠

(I) أقصد بالمادة ما يدخل فى بناء هيكل الموضوع كالكلمة فى الادب ، وكاللون فى التصوير ٠

الاستبطان والفن للفن :

ارجع الى عملية الاستبطان التى يمكن أن أقول على اساسها ، أنه ليس هناك فن للفن ، بل هناك فن للمجتمع ، مهما كان نوع الانتاج ، ومهما قال النقاد فى شأن هذه القضية • لأن استحضار الكاتب او الفنان لمعلوماته السابقة ، وتجاربه السالفة ، اثناء استبطانه لنفسه ، تدخل بصورة مباشرة او غير مباشرة العادات والاساليب الاجتماعية التى تأثر بها الاديب او الفنان فى العملية الفنية • فلو درسنا أثرا من الآثار التى يقول اصحابها انها من قبل الفن للفن دراسة نفسية ، اى تعتمد على علم النفس ، فلا شك أننا سنجد فيها آثارا اجتماعية يختلف مقدار بيانها او خفائها باختلاف درجة تعقيد المؤثرات التى عملت فى نفسية الفنان • ولازدياد الوضوح نأخذ مثلا أحد الفنانين الذى صور على لوحة ارضيتها بيضاء دائرة سوداء ، ولما سئل عن مغزى اللوحة قال : انها تدل على فناء العالم ، او العدم (le néant) • فلو تساءلنا عن الاسباب التى دفعته الى تصويرها ، وعن العوامل التى احضرت امام ذهنه ــ فى فترة رسمه لهذه اللوحة ــ صورة فناء العالم لاستطعنا أن نصل الى المؤثرات الاجتماعية ، او الصدمات النفسية التى تعرض لها هذا الرسام ، فتركت فى لا شعوره صورة سوداء ، طفت أثناء عملية « الاستبطان » التى هى المرحلة الاولى لعملية الخلق الفنى •

فالفنان مهما أراد أن يبعد فنه عن قضايا المجتمع يجد نفسه بالضرورة فى خضمها ، باعتباره كائنا يتأثر بمؤثرات الآخرين ، وباعتبار ان كل أثر له هدف وله منحى ، والا كان من قبيل العبث لا غير •

وهم كثيرا ما يطلقون قضية الفن للفن على ذلك النوع من الفنون الذى لا صلة له بالاخلاق ، فهذه قضية تستحق النظر من جديد ، واعتبر أن لا أساس لها من الصحة ، فالفن فى صميم الاخلاق حتى ولو صور التفسخ الاجتماعى (1) •

وعلى هذا الاساس يظهر مبدأ الفن للفن أسطورة يتقى بها الفنانون هجمات النقاد •

---

(1) أنظر ما قلته فى مجلة « الفكر » ــ نوفمبر 1969 ــ ص ــ « غاية الفن » •

اللاواقعية والفن :

إن عملية الاستبطان تجعل الفنان يتمثل كل معلوماته السابقة • معنى ذلك أنه يصبغها حسب اتجاهه الخاص ، وحسب نظرته لعالم الاشياء والناس ••

ومن ثم يكون الواقع الفني يختلف اختلافا ولو جزئيا عن الواقع المعاش • فالفكرة التي ترسب في أعماق الفنان بالرغم عن كونها تستمد من عالم الواقع ، الا انها تتأثر باتجاهه كما قلت ، فتكون مشذبة ، او بالاحرى مهذبة في عالم الفن • فلا يمكن أن يكون واقع مسرحية عهد البراق على المسرح ، هو نفس الواقع في الحياة الاجتماعية فنحن نتأثر بها عندما نشاهده على المسرح ، فنلمس فيها نفوسنا وأوضاعنا ، ولا يمكن أن يحدث لنا نفس التأثير لو عشنا أوضاع تلك العائلة في حياتنا اليومية • وسبب ذلك ان الأثر عندما يستلهمه الفنان من واقع المجتمع يكيفه ، ويحوله عما هو كائن الى ما ينبغي أن يكون ، وتتدخل في هذا التحويل مثل الفنان ونزعاته ، وبالتالي فهو يلبس ذلك الاثر ثوب عالمه الذاتي ، ويدخل عليه شيئا من التقنية والتصفية ، حتى يشعر الجمهور بلذة وراحة تتأتيان من مشاركته (الجمهور) للفنان ومشاطرته رأيه فيما ينبغي أن تكون عليه تلك الاوضاع الاجتماعية •

وهذا يؤدينا الى نفي ما يسمى بالفن الواقعي اذ ليس هناك فن يتقمص الواقع كما هو ، فيسرد ما في ذلك الواقع سردا دقيقا ، ويقلده كما هو كائن (1) بل لا بد ان تتدخل في عملية النقل أو التقليد شخصية الفنان ، فيخرج الاثر من ثم من نطاق الواقعية المعاشة ، الى ما اسميه بالواقعية المثالية في الفن وهي تختلف عن الاولى اختلافا جوهريا ، فالاولى تتصف بالجمود وبعدم الحركية بخلاف الثانية التي توحي للناظر بكنه ذلك الشيء والاشياء التي من نوعه • كما تحمل لنا في أطوائها المؤثرات الخارجية التي أثارت انتباه الفنان ، ودفعته للقيام بذلك الاثر بالذات •

ـ هل الخلق الفني خلق ؟

على أساس ما تقدم يحق لنا أن نتساءل : ما هي عملية الخلق الفني ؟ وما هي العناصر التي تكونها ؟ وهل الاثر العبقري خلق جديد كما يقول البعض ؟ هذه أسئلة تتبادر لذهن الباحث ، ولكنها في الواقع عويصة العلاج مستعصية الجوانب ، وسأحاول معالجتها على أسس علم النفس •

---

1) النقد الادبي ـ لأحمد أمين ـ ط 2 ـ ص 52 ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ 1957 •

فعملية الخلق فى نظرى تتدخل فيها عدة عوامل اولا عملية الاستبطـــان السابقة الذكر ، وهى التى تسمح للفنان بتحفيز خبراته واستجماع انفعالاته ، واثارة تصوراته ، حسب ما يقتضيه الاثر، حتى يحدث فى نفس الفنان ما سماه فرويد « بالكبت » وهو فى نظرى تلك النوازع المختلفة التى تسبب للفنان ذلك الدفق الداخلى من الالفاظ المتتابعة والافكار المتتالية اذا كان شاعرا ، او تلـك الصور والابعاد المتناسبة التى تتوافق مع الشىء فى واقعه ، اذا كـان الفنان مصورا • ثم تتدخل فى تصريف هذه العملية شخصية الفنان ، فتسيطر على مجموعة العوامل التى يحس بها فى نفسه ، ثم تصرفها حسب مقتضيات الترتيب المنطقى ، التى من شانها أن تكسب الاثر وضوحا يؤهل الجمهور لفهم ذلـك الاثر •• ويولد الكبت نفسه ، فى أعماق الفنان شعورا بالتفوق على الآخرين ، وهذا الشعور يولد بدوره نشاطا نفسيا فى ذات الفنان ، او يولد فيه ما سماه عز الدين اسماعيل **بالزهو** (I) ، وهذا المنزع يدفع الفنان الاصيل الى نشدان منهج جديد فى آثاره وابتكار صيغ تختلف عن صيغ الآثار الاخرى التى من نوعه، وهذه الجدة من شأنها أن تثير اندهاش الجمهور وتصدمه لانه لم يتعود مثل ذلك النوع من الآثار الذى يخالف ما تعارف عليه الناس ، وعادة ما يكون لمثل هذا الاثر ابعاد مختلفة يكثر فيها التأويل والتحليل، ويذهب فى شأنه النقاد مذاهب شتى • فهذا الاختلاف فى التأويل ، وتلك الدهشة التى تولدت فى الجمهور ، يدفعان الناس وخاصة أهل الفكر الى وصف ذلك الاثر بالتفوق •

ويدخل هنا الرمز الفنى كعامل أساسى من العوامل التى تزيد فى اشكال الاثر وتكثر من الاقوال حوله • والرمز هو مظهر من مظـاهر العـداء النفسى الذى يكنه الفنان للآخرين • فهو انسان أنانى ، يريد اعجاز غيره ، وبالتالى يريد منهم التسليم بعبقريته •

وأصل هنا الى الاجابة عن السؤال السابق : هل الخلق الفنى خلق ؟ فاقول مع بيرك : « ليس هناك مكتشفات كبيرة فى الطبيعة الانسانية • والحقائـق التى ترتكز عليها حياتنا تكاد تكون معروفة للناس جميعا ، فلسنا فى حاجـة الى تعلمها ، وقد تعلمناها من قبل ، لانها ليست الاتطبيقا لادراكاتنا الغريزية على تجاربنا فى الحياة العادية »

اذا ليس الاثر العبقرى بجدة مادته ، انما بالمنهج الذى ينتهجه ، وبصدق تفاعله مع الحياة • فباعتبار الفنان او الاديب كائنا شاذا عن المجتمع بحكـم

(I) انظر كتاب عز الدين اسماعيل ـ التفسير النفسى للادب •

مزاجه وطبيعته ، فقد يأتى فنان من الفنانين ويوغل فى الشذوذ ، فيبنى لنفسه عالما خاصا مستمدا من واقع الناس ، فيستمد منه آثاره التى تكون بالضرورة شاذة تمثل شخصية صاحبها • وأعنى بكلمة الشذوذ هنا مخالفة ما تعارف عليه الناس • فتكون عبقرية الاثر •

وليست هذه الصفة كما قلت آتية من كون الاثر يحتوى على مادة جديدة لم تعرف فى حيز الوجود الفنى • بل المادة موجودة فى غرائز الفنان ذاته ، وفى تجاربه الشخصية ، انما هذه الصفة آتية من الصبغة المبتكرة التى أخرج فيها الفنان أثره • **فالاثر الفنى اذا هو اكتشاف وليس بخلق ، وهو بحث وتفكير متواصل ، لا وحى ينزل تنزيلا •**

ـ الصراع الفكرى والفن فى الرمز :

ان اختلاف وجهات النظر حول الاثر الواحد ، وخاصة فى الفنون التشكيلية يوضح الصورة الكاملة للحياة الاجتماعية ، ويستوفى البحث فى الجوانب المتعددة للحياة الفكرية • ويكثر الاختلاف فى الفن التشكيلى لاعتماده على الرمز وسأحاول هنا ايجاد جواب للسؤال التالى : لماذا يوجد الرمز فى الفن وكيف نفسر وجوده ؟

عندما نبحث فى هذا المجال لا ينبغى أن نفصل الرمز عن الموضوع ، لانه تكملة له ، يؤدى دلالة خاصة من دلالاته ، الا انه يمتاز بتعقيد ناتج عن الصراع فى الحياة العقلية والباطنية للفنان ، صراع ينشأ بين الشعور واللاشعور أو بين « الانا » الاعلى الذى يتمسك بالقيم الاجتماعية ، وبين الـ « هو » الذى يريد التمرد على المعايير الاجتماعية • والاخلاقية بأعتباره جامعا حيوانيا ، لايقبل العقل والمنطق الاجتماعى • فينشأ من هنا تحرج الفنان من مضمون أثره الذى قد يكون منافيا للمقاييس الاجتماعية الموجودة ، وتحرجه هذا له علاقة « بالانا » الذى يسير حسب المقتضيات المنطقية للعالم الخارجى ، فتنشأ من ثم الحماسة فى اعماق الفنان ، التى عرفها علماء النفس : بانها العاطفة المشبوبة من الارادة (1) معنى ذلك أن قوة الشخصية الفنانة تتدخل للسيطرة على هذه النوازع • ولارضاء الذات العليا وال « هو » يلجأ الفنان الى الرمز الذى يضمنه أهدافه الفكرية والاجتماعية وميوله الغريزية • فيكون من ثم الرمز فى الفن والشعر محببا الى النفس ، ولكنه مكسو بغيمة ضبابية ، تترك المجال الواسع لتسريح الفكر واعمال الرأى بالنسبة للنقاد • ويكون من ثم كذلك

---

(1) شخصيتك فى الميزان ــ ص 83 ــ سلسلة اقرأ ط سنة 1967

استحسان الجمهور لتلك الرموز ، لانها تنظم الايقاعات الذاتية للمتفرج مع ايقاع العالم الخارجي ...

وهذا التنظيم الداخلي في نفس المتأمل يقع حسب فكرة مسبقة عن التنظيم الخارجي للايقاع الجمالي الذي يناسب ذوقه ، وبين الايقاع الوجودي الذي يحسه احساسا قبليا .

وأهم سبب في نشوئه هو الاختصار ، كذلك يدخل في تكوينه عامل آخر هو الاستقلال الذاتي الذي يشعر به الفنان . ومشكلة الاستقلال الذاتي لها دخل في عملية التطوير الفني التي سنتكلم عنها فيما بعد .

ولنتحدث الآن عن مشكلة :

ـ التقمـــص :

واعنى به تقمص الفنان لنفسيات شخصياته فهل كاتب القصة مثلا عندما يصور مجرما ، يكون في تلك اللحظة يشعر بالاجرام ؟ وما هي العوامل التي لا تجعله هو مجرما بدوره ؟ ان الفنان ككائن بشري تكمن في ذاته جميع الغرائز التي شرحها علم النفس ، كغريزة المقاتلة ، وغريزة الاستطلاع ، وغريزة السيطرة وغيرها . بامكانه على ضوء هذا التصرف في غرائزه وتحويرها اذا اقتضى الامر . وكل غريزة من هذه الغرائز هي رهن للاستجابة الشرطية وبالتالي هي رهن حاجة الفنان ، اذ تطفو غريزة الاجرام مثلا ، من مستوى اللاشعور الى مستوى الشعور ، باشراف الانا الاعلى ، فيتمثل الفنان المجرم بهيأته وميوله ونوازعه ونظرته لعالم الناس ، ويضمن ما شاء من هذا في أثره . فنشعر به في القصة أو في اللوحة كائنا مستقلا يتصرف في أهوائه ومنازعه بحرية . والشخصية المجرمة في القصة هي في الواقع نسخة من غريزة الاجرام الكامنة في ذات الفنان ، مع تحويرها حسب متطلبات الاثر .

الا انه قد تتدخل غرائز أخرى ، كغريزة السيطرة لدى الفنان لاستكمال شخصية البطل في ذلك الاثر ، ولاكساب تصرفاتها منطقية تجاري منطق الحيــاة .

والذي يمنع الفنان من أن يكون مجرما هو سيطرة الانا الاعلى الذي يكون قويا لدى الفنانين بفعل المزاج الحاد .

وكثيرا ما تسيطر غريزة حب الاستطلاع لدى الفنان على بقية الغرائز

الاخرى ، فلا يشتغل الا بما يقوى خبراته الفنية ، وبذلك لا يكون الفنان في عالمه الواقعي يسلك نفس سلوك بطله في القصة .

ــ عوامل التطور الفني :

ان « الاستقلال الذاتي » للفنان ينفي الجمود من المجتمع ويولد الحركية التي هي عنوان التطور ، وهذا الاستقلال يقصد به الباحثون هروب الفنان من متاحف الماضي ونزوعه الدائم الى استكناه غياهب المستقبل ، كما يستلزم الاستقلال بالذات « الثقة بالنفس على أن لا تكون هذه الثقة ليست استبدادا ، بل خاضعة لحكم المنطق والعلم والبرهان » (1)

حتى يمكن للفنان أن يقنع جمهوره بانتاجه وحتى يستطيع بقوة حجته التي تكمن في الابداع نفسه أن يكتسب رضا الآخرين ، الذي من شأنه ان يزيد في ثقته بنفسه ، وبالتالي يمكنه ذلك من الابتعاد عما هو روتيني خال من روح الحياة المتطورة ، لان الاساليب القديمة المعادة « تغلق أعيننا عن وضعنا المحسوس في عالم اليوم ، وتعوقنا على بناء عالم انسان الغد » (2) .

ولو حاولنا تعليل هذه النزعة التقدمية لدى رجل الفن ، فبطبيعة الحال ، سنجد جذور نزوعه الى التطور في مظاهر الكون حولنا ، والفنان بحكم طبيعته اكثر الناس التصاقا بروح الوجود ، فهو يتطور بتطوره حساومعنى .

ــ الذاتية في الفن

قبل الايغال في البحث ، بودى ان أبين حسب مقتضى ما وضحته سابقا مشكلة الذاتية . اذ يتضح مما سبق أن الاثر نتيجة انفعالات مختلفة ، تدفع الشاعر او الفنان الى خلق أثر معين دون آخر ، والى سلوك مذهب فني دون مذهب ثان .. نستنتج من كل هذا أن الاثر ذاتي لا موضوعي . ونستطيع أن نعمم هذا الحكم على كل الآثار ، عدا الآثار العلمية التي تعتمد على حقائق مقررة لا تقبل الجدل . والذاتية في الفن تختلف معاييرها باختلاف الآثار الفنية ، فهي تكون حادة وموغلة في الحساسية في الفنون التعبيرية وخاصة الشعر ، وتكون ضعيفة خاصة في الفن التكعيبي الذي يتحول من العمل الفني الى العمل العلمي ، لانه يعتمد في مجموعه على الاشكال الهندسية . ولكن مع

---

(1) كتاب شخصيتك في الميزان ــ سلسلة اقرأ ــ ص 75 ط 1967

(2) Pour un nouveau roman — Alain robbe - grillet P. 10 — les éditions de Minuit, Paris 1963

وجود الذاتية فاننا كذلك نلمس الموضوعية فى الاثر،ولا يتناقض هذا مع ما قلته سابقا ، لان الذاتية الفنية تحمل فى اطوائها بذور الموضوعية ، التى تختلف اختلافا كليا عن موضوعية العلم ، وهى نتيجة نشدان الفنان للحقيقة . والحقيقة هى كل شىء يدوم كما عرفها البير كامو .

وفى الاثر الفنى الاصيل ، نلمس محاولة الفنان تقريب ابعاد الحياة الى مفاهيمنا الضيقة حتى نكون بها أكثر اتصالا . كما يحرك فى نفوسنا الاهتمام بوجودنا . وذلك بخلق ضمائرنا الميتة من جديد . « وخلق الضمائر الميتة هو تحطيم للمسافة التى تفصل بيننا وبين العالم » (1)

تونس فى 28 ـ 12 ـ 69

ن. ب.

(1) Albert Camus — L'été — p 32
Edition Gallimard — 1959

لاني ما انتفعت بأن أبالي*

(المتنبي)

قصة بقلم : حسين الواد

« قولي يا عزيزتي ولا تخجلي ، فما أتعس من يتنكر لماضيه ، وأن أعلم من شفتيك الساحرتين لاهون على من أن أعلم من غيرك ٠٠ »

ولكنها اكتفت بأن زوت ما بين عينيها الحائرتين ، فثار ثائري وصحت وهددت وتوسلت واستعملت جل الحيل لانطقها فما نبست بحرف واحد مما أريد أن أعرف ٠٠٠

أعرف ؟! ــ لما أتعس المحبين ينقبون عن الحقيقة التي تفقأ عيونهم ، يتمزقون بين الرجاء والخوف ثم بين الانكار والتصديق ، وأخيرا يخرون جثاة يمزقون الشعور ، يندبون الخدود ، وأجسادهم تتلوى ألما وحرقة تحت سياط من نار لحقيقة من لهب ٠

« نعم قولي يا عزيزتي ولا خوف على من الألم ٠٠ أترى الابصار معذبي وقد كابدت من الاهوال ما كابدت ٠٠٠ »

وعاودها العبوس فتاهت عيناها وقد صلب على أهدابها الدمع في عوالم شتى ، وجاشت نفسي بشعور من الغربة حاد وأحسست كأنما ما عرفتها قط ٠

وخامرتني النفس بأن استعمل آخر سلاح ، فاما أن أفوز بما أريد منها ، واما أن تكون القطيعة ، فالحياة مع دلال فتاة مما لا يطيقها الفضوليون من الرجال يريدون أن يعرفوا عن محبوباتهم كل شيء حتى ما يخامر أذهانهن في ساعات الجموح العاطفي والتوق ، يغارون من الصور ومن أحاديث الضمائر حيرى ، ويشكون اذا ما تواردت الخواطر ارضاء لحاجيات النفوس ٠

وخطر لي أن أتريث فعدت أهذى بكلام التسامحيين وفي داخلي تضطرم نيران الشك والحيرة والخوف ٠ ولكنها وضعت يدها على كتفي وتمتمت في شبه آهة مكبوتة رطبها مجرى الدمع « أحبك ٠٠ أحبك » فكان أن عاودتني كبريائي فظللت صامدا كالبرج وأنفى الى السماء أطالع على صفحتها الغيوم

وأستقبل المطر رذاذا يدغدغ الحمى فى وجنتى وعلى جبهتى • وأحسست برأسها يهوى على صدرى فتصورتها تنشج من الاعماق بصمت ، وكدت أحوى خديها براحتى لارسم على شفتيها الشهيتين قبلا طويلا تنسينى العالم والهموم وتغيبنى فى دنى الاختلاجات الساحرة الندية ، ولكننى لم أفعل خشية أن يفسد على الضعف انتصارى فبقيت جامدا كالتمثال أتنفس بتكلف وأخنق التنهدات بعسر • وأسرعت يدى الى جيبى تبحث عن بطاقة بريد نقشت عليها كلمات سامة كنت انتقيتها لمثل تلك اللحظة : « اذهبى وليعاودنى الضياع » • فلاقس ، ولتنهر ، ولاعرف ، وليكن الدمار • فما أتفه حياة نعيشها على الخديعة والزيف •

القسوة ! ما أحوجنا الى تعهد الشدة فى بعض الاحيان ، فالقوة تغذت من نفسها أم آلت الى رماد تذروه الرياح هرما وضعفا ، لما تقاس بها ضمائر العظماء : والجبروت ، آل الى العدل أم الى الطغيان ، لما يحقق للكون رسالة الحياة ••

رفعت رأسها براحتين محمومتين لاطالع وجها سترسم قسوتى على صفحته مختلف الانفعالات ، وتأملت العينين المحمرتين تورمت فيهما العروق القانية ، وكان أن حمل على الحنان حملات ، وعاودتنى الرأفة فانحنيت ولثمت الجبهة الضيقة بشفاه من نار ، ثم مددت لها البطاقة فتخطفتها وقد عاودها الاشراق والابتسام ثم أطرقت ثانية وانهارت بين يدى بأنفاس مخنوقة :

الاجرام ! ـ وأحسست بقلبى يسحق بين جنبى تحت وزن لا أعرف مأتاه • التمثيل ! واستبدت بى عناصر السخط •

ما أروع الساعة التى نحفظ فيها الجسد والروح من كل تسلط أو اباء ، لقد كانت بين ذراعى فى شبه اغفاءة بجسدها النحيل الخفيف ، بصدرها الناهد الناعم ، برأسها الصغير ذلك الذى حوى من الخواطر ما أبأسنى • وعفرت وجهى فى عنقها قبلات فوضوية ، وعاودنى شعورى بالعجز ، فاللغز ما انحل بعد ، والابهام ما اتضح ، وما تقدمت خطوة قط ، وانما هو عذاب الحقته بالنفس التى أعز •

وعاودتها بعد لاى القوى ، فتنفست ثم جعلت تهذى بمعميات الالفاظ أول الامر ، ثم بكلمات مسموعة واضحة وقالت : ••••••

ألقيت بها على السرير بعنف وانتصبت وحشا أثارته رائحة الخطر ، وجعلت أذرع الحجرة بغيظ ، بعصبية وعذاب ، وامتلكنى الضحك فجعلت أقهقه وما عدت أفكر فى شىء •

« التفكير .. المعرفة ... والمبالاة » ما أبعدنى عن هذا العالم المفقود .

أنا اليوم رجل تملكه الشك فغار من ظله وعمى عن فضول صاحبته ، وسيطر عليه التوهم فأصبح يرى فى كل ما هو آخر مزاحما له على هـوى « قـريدة » يشمئز منها كل صاحب ذوق ... ولكنها تعقدات الحياة تجبرنا على ألا نحب بحق الا الذى يبعث فى أعماقنا الحيرة والخوف ، والالم والضعف .

فأن أكون أنا بخواطرى وأحلامى ، بآمالى وتهاويلى ، وأن أتعشق الفن فـلا سياط العذاب تلسعنى ولا خوازيق الشك تخرب نفسى : لا قيمة له ولا جدوى وأن أعيش كالعاديين من الناس بقليل من المسرة فى النهار ، وبقليل آخر فى الليل وأن أحافظ على سلامة الجسم ، وأن أعايش الآخرين بابتسام التملق والحذر وبعديد المضحكات ، لتفاهة من الترهات ، وحصاة فى أكداس من رمال الصحراء تلهو بها الرياح حينا من الزمن وتدعها بلطف لشمس البلى .. لا ! .. لن أكون سخافة يمجها الذوق وتنفر منها المسامع ، فوجودى قصة سطرها الاذى عـــلى صفحة المكتوب ، وحياتى مأساة طموح وخرافة أجيال ترددها الافواه انشودة عزاء وسلـــوى .

الذنب ذنبى .. فأنا دعوت الانس والجان وأثرت الآلهة ليلة جلست بين المقابر أستلهم أرواح الموتى وأدعو لنفسى البقاء ، وأنا وقفت عدوا للطبيعـة والمجتمع أمحو مارسموا ، أسخر مما أرادوا ، وأتحدى لا منظور القوى لا صنع الطهارة فى جسم قـــذر .

وأنا أنرت لها البصيرة فرأت ومع الرؤية تولدت الجريمة .

ويشاء الضياع فى كل نفس أن تتولد معظم سعاداتنا مما قد يحيط بنـــا من ارزاء ، فكان أن قهقهت فى وجه الحقيقة ساعة ، وكان أن تلويت من الالم ساعات ، ثم كان أن انهرت على نفس السرير فركبنا الجموح وطارت بنـــا آمال من النشوة حتى الحلول فى مالا أدرى من الارواح الهائمة ...

واها للانسان مما جنى عليه فرويد (Freud) ومن نحا منحاه من المفكرين ، أغرونا بالنفس فجاريناهم فى شعابها الملتوية وأصبحنا نبصر ما خفى عـــلى ملايين الاعين المبصرات ، فاذا الشك على أحد ما تكون الشكوك ، واذا الغيرة تنطلق سهاما من الضمير ، تخترق العضلات لتخلق لانفسها دروبا فى الدم وتعض الحساس من كل جسم عضات تذهلنا عن الواقع والصياح . ما عساه يحدث للانسان اذا ما علم أن للفتاة التى أحب فى العهر تاريخ ، وأن الهالـة المبهمة ننسجها شبكات توهم وخيال فى ساعات الحنين والتوق ، ونحيطها بها قداسة لحظة انعدام الثقة فى النفس واجتياح الملـل لـذات أضـرت بهـا

الوحدة ، والضياع انهكها فى لا متناهى الاكوان ، ليست فى الحقيقة الا جزءا من ذاتنا ما خرج منها قط ، وما وجد فى الآخر المحبوب لحظة من الزمن ٠

أو ليس الضر يولد فى أعماقنا مع الحيرة ، وينمو حين نسلطه على كل ما يحيط بنا من الاجسام والاشياء ، فنحب مبدئيا الام التى أنجبتنا ، ونحب مسقط الرأس ، نحب لعبنا واخوتنا وجيراننا ودروب الطفولة ، نحب أول قسم وأول معلم والزملاء الاولين ، ثم يتجمع الجنان الذى فى النفوس ليضطرب فى الاعماق ويهتز ثائرا صاخبا متمردا ، ويتسلط من تلقائه شؤبوب نور على جسم معين يضيىء لنا منه الجوانب وينير لنا فيه الاعماق ، فنفهم أو نتوهم الفهم ، ونحن الى ذلك الجسم ثم نحبه اذا ما الهمنا الخوف عقالا تشد اليه العواطف فى غالب الاحيان وتصبح بتلاشيه فوضى كما كانت ، ونبحث عما فهمنا فى من عشقنا ونفتش عن الرسم المبهم الذى كونناه له فى أذهاننا وتبدأ الفروق فى الاتضاح ، فاذا الخوف واذا الشك واذا الحيرة من جديد ، ثم تصعقنا السفالة حقيقة مرة حادة قاسية تذهلنا عن العالم والنفس ، نحاول نكرانها بالتشبث بمختلق المزاعم نصنعها رجاء وأملا ، ويعيينا التعلق بالخيوط الواهية فننهار حديثا عن ضآلة الانسان ونغوص فى السويداء واليأس ، أو فى الجنون والموت ٠

كنت وقد ركبت الجموح والمتعة ، كمن يتقلب على مقلى امتد لسان اللهب الى زيته ، تعصف بى خواطر ملتهبة فى هيكل ملتهب وتغمزنى الغيرة غمزات مطردة ، فأقسو وألين ، واتنهد سعادة والتذاذا ، واتأوه شقاوة وعذابا ، والهيكل النحيف المذنب ، تلاعبت به الايدى الغريبة ، خدره لقاح لقاح غريب وشواه على نار الرغبة غاز أجنبى ، يتلوى من تحتى اختلاجات نابضة بالموت فى غضون الحياة ٠

ح٠ و٠

(*) عنوان القصة هو نصف بيت للمتنبى من قصيدة يرثى فيها والدة سيف الدولة ويعزيه بها ٠ يقول فيها :

« رمانى الدهر بالأرزاء حتى   فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت اذا أصابتنى سهام   تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالى بالرزايا   لأنى ما انتفعت بأن أبالى »

(الفكر)

الى شعراء العالم

شعر : المنصف الوهايبي

(1)

تعـالـوا من أقاصي العالم الاصغـرْ
ومن وطـني السّليب الضائع المقفرْ
ومن أدغالـنا .. من كلّ أرضٍ حـرّةٍ حرّهْ
تعانق كالصباح بشائـرالثـورة
من المـدن الضبّابيه
تعالوا يا زهور الحبّ يا اشراقةَ الاتي
ويا ضوءَ التباشير الصّباحيّه
نجوب العالم المنهار نمسح عن جبينِ الارضْ
ظلالَ المـوتِ والاحـزانْ
ونكتب عن بوارِ الارض أغنيـهْ
ونبت زهـرة في خـاطرِ الانسانْ

(2)

تعالوا أيهـا الشعـراء أسألـكـم
عن المزروع بين الشوكْ
يحول الشوكُ دون نمـوّه الطالـع
عن المزروع في الحجرِ
يجفّ يجفّ ما أن تشرق الشّمسُ
ويأكلهُ جـراد هـائـم جائـعْ
عن المزروع في الخصبِ
يفوّفُ مثل داليةٍ على شبّاكنا تغفـو
وتنشر عطرهـا في فسحةِ الدارِ

(3)

تعـالوا من أقاصي العـالم الاصفرْ
ومن وطني السليب الضائع المقـفرْ
تعـالـوا أيهـا الشعراء ، أسأل بينـكم
عن شاعـرِ جوّال
يطوّف في أقاصي الارض يمنحُ حبّهُ للنّاسْ
ويقرعُ في صباحِ العالم الاجراسْ
ولـمْ يـرجـعْ
وجدّي لم يـزلْ يـروي :
«سيأتي يا بنيّ محمـَّلا بالحبّ والازهـارْ
سيأتي في شتاءِ العامِ يحملُ في العيونِ بشائرَ الامطار»
ترقبنـاهُ في ضوءِ القنـاديـلِ المسائـيهْ
وعبرَ سنابـلِ القمـحِ
وتحتَ خيوطِ أمطارٍ خريفيّـهْ
ترقبناهُ في خضرِ المزارعِ .. في شبابيك الهـوى
والوجـد والبـوح
وتحت نـوافـذِ العشاقْ
ولـمْ يـأت

(4)

أحبائي .. يجوزُ يجوزُ أن نشقى
ويُنفىَ صوتـنا لـكنّـمـا أشعارنـا تبقى
بنفسجة تفوّف في الجفافِ وزهـرةَ بيضَـاءْ
وجسرَ الانعتاقِ الصامدِ الصّامـدْ
ومـوّال الهـوى والوجد يا شعـراءْ

م٠ ه٥

رسالة ابن فضلان بين التقرير السفاري وادب الرحلة *

بقلم : أحمد خالد

(2)

مراســـم الموتـــى :

حكى ابن فضلان تفاصيل مراسم الموتى لما فيها من غرابة تلفت نظره بصفته مبشرا مسلما ورجلا متحضرا آتيا رأسا من بغداد عاصمة الخلافة العباسية مهد الحضارة ومهبط القصاد من كل صوب عصرئذ · فمن عادة البلغار « اذا مات المسلم عندهم أو زوج المرأة الخوارزمية غسلوه غسل المسلم ثم حملـوه على عجلة تجره وبين يديه مطرد حتى يسيروا به الى المكان الذى يدفنونه فيه · فاذا صار اليه أخذوه عن العجلة وجعلوه على الأرض ثم خطوا حوله خطا ونحوه ثم حفروا داخل ذلك الخط قبره وجعلوا له لحدا ودفنوه وكذلك يفعلـــون بموتاهم · ولا تبكى النســـاء على الميت بل الرجـــال منهم يبكون عليه ··· » (ص 143) ومن عادة الروس اذا مات لهم مملوك أن يتركوه « على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير ··· » (ص 154) ويقومون بحرق موتاهم ويبدو انهم متاثرون فى ذلك بديانة الهنود وقد ذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتابه « تاريخ الهند » ان نارايـن nârâyana رسم للهنود دفع الأجساد الى النار « فمنذ ذلك الوقت يحرقونها فلا يبقى منا شىء من وضر أو عفونة أو رائحة إلا ويتلاشى بسرعة ولا يكاد يتذكر والصقالبة فى زماننا يحرقون الموتى··· ويقول الهند ان فى الانسان نقطة بها الانسان انسان وهى التى تتخلص عند انحلال الأمشاج بالاحراق وتبددها ورأوا فى هذا الرجوع أن بعضه يكون بشعاع الشمس تتعلق به الروح وتصعد وأن بعضه يكون بلهيب النار ورفعها اياها كما كان يدعو بعضهم أن يجعل الله طريقه اليه على خط مستقيم لأنه اقـــرب المسافات ولا يوجد الى العلو الا النار أو الشعاع ··· »

(*) راجع الفكر ـ العدد 6 ـ مارس 1970 ـ السنة 15 ·

وحكى ابن فضلان تفاصيل عجيبة عما كان الروس يفعلون برؤسائهم عند موتهم فى فصل جد ثرى ومفيد للمؤرخ وعالم الأجناس لفت انتباه المستشرق « فراهن » منذ سنة 1823 ٠ وهاك ما عاينه ابن فضلان بنفسه فى مأتم :

« كنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغنى موت رجل منهم جليل فجعلوه فى قبره وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها ٠ والغنى يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث فثلث لأهله وثلث يقطعون له به ثيابا وثلث ينبذون به نبيذا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها ٠

وهم مستهترون بالنبيذ يشربونه ليلا ونهارا وربما مات الواحد منهم والقدح فى يده ٠ اذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه : « من منكم يموت معه ؟ فيقول بعضهم « أنا » فاذا قال ذلك فقد وجب عليه لا يستوى له أن يرجع أبدا ولو أراد ذلك ما ترك وأكثر من يفعل هذا الجوارى ٠

فلما مات ذلك الرجل الذى قدمت ذكره قالوا لجواريه : « من يموت معه ؟ » فقالت إحداهن « أنا » فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت حتى أنهما ربما غسلتا رجليها بايديهما ، وأخذوا فى شأنه وقطع الثياب له واصلاح ما يحتاج اليه ٠ والجارية فى كل يوم تشرب وتغنى فرحة مستبشرة ٠

فلما كان اليوم الذى يحرق فيه هو والجارية حضرت الى النهر الذى فيه سفينته فاذا هى قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنك وغيره وجعل ايضا حولها مثل الانابير الكبار من الخشب ، ثم مدت حتى جعلت على ذلك الخشب ٠ واقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهم وهو بعد فى قبره لم يخرجوه ٠ ثم جاءوا بسرير ، فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات الديباج الرومى والمساند الديباج الرومى ، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت ففرشت على السرير الفرش التى ذكرنا ٠ وهى وليت خياطته واصلاحه وهى تقتل الجوارى ورأيتها جوان بيرة ضخمة مكفهرة ٠

فلما وافوا قبره نحوا التراب عن الخشب ونحوا الخشب واستخرجوه فى الازار الذى مات فيه فرأيته قد اسود لبرد البلد ، وقد كانوا جعلوا معه فى قبره نبيذا وفاكهة وطنبورا فاخرجوا جميع ذلك فاذا هو لم ينتن ولم يتغير منه شىء غير لونه ٠

فألبسوه سراويل ورانا وخفا وقرطقا وخفتان ديباج له أزرار ذهب ، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية وحملوه حتى أدخلوه القبة التى على السفينة وأجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند وجاءوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه ·

وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه فى السفينة ، ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه الى جانبه ، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما فى السفينة

ثم جاءوا ببقرتين فقطعوهما أيضا وألقوهما فيها ثم أحضروا ديكا ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها ·

والجارية التى تريد أن تقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة من قبابهم فيجامعها صاحب القبة ويقول لها : « قولى لمولاك انما فعلت هذا من محبتك » ·

فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاءوا بالجارية الى شيء قد عملوه مثل ملبن الباب فوضعت رجليها على أكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها فأنزلوها ، ثم أصعدوها ثانية ففعلت كفعلتها فى المرة الاولى ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة ففعلت فعلها فى المرتين ، ثم دفعوا اليها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به وأخذوا الدجاجة فألقوها فى السفينة ·

فسألت الترجمان عن فعلها فقال : « قالت فى أول مرة أصعدوها : هوذا أرى أبى وأمى وقالت فى الثانية : هو ذا أرى جميع قرابتى الموتى قعودا وقالت فى المرة الثالثة : هو ذا أرى مولاى قاعدا فى الجنة · والجنة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان وهو يدعونى فاذهبوا بى اليه ، فمروا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانا عليها ودفعتهما الى المرأة التى تسمى ملك الموت وهى التى تقتلها ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما الى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت ·

ثم أصعدوها الى السفينة ولم يدخلوها الى القبة وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا اليها قدحا نبيذا فغنت عليه وشربته ، فقال لى الترجمان « انها تودع صواحباتها بذلك »

ثم دفع اليها قدح آخر فأخذته وطولت الغناء والعجوز تستحثها على شربه والدخول الى القبة التى فيها مولاها · فرأيتها وقد تبدلت وأرادت دخول القبة ، فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها ·

وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحهـا فيجزع غيرها من الجوارى ولا يطلبن الموت مع مواليهن ٠ ثم دخل الى القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ٠ ثم أضجعوها الى جانب مولاها وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التى تسمى ملك الموت فى عنقها حبلا مخالفا ودفعته الى اثنين ليجذباه ٠ وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل فاقبلت تدخله بين أضلاعها موضعا موضعا وتخرجه والرجـلان يخنقانهـا بالحبـل حتى ماتـــت ٠

ثم وافى أقرب الناس الى ذلك الميت فاخذ خشبة وأشعلها بالنار ٠ ثم مشى القهقرى نحو قفاه الى السفينة ووجهه الى الناس والخشبة المشعلة فـى يـده الواحدة ويده الاخرى على باب أسته وهو عريان حتى أحرق الخشب المعبأ الذى تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التى قتلوها فى جنب مولاها ٠

ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحد خشبة قد ألهب رأسهـا ، فيلقيها فى ذلك الخشب فتأخذ النار فى الحطب ثم فى السفينة ثم فى القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها ٠

ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم تسعرها وكـان الى جانبى رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذى معى فسألته عما قـال له فقال انه يقول أنتم يا معشر العرب حمقى ، فقلت لم ذلك ؟ قال انكم تعمدون الى احب الناس اليكم وأكرمهم عليهم فتطرحونه فى التراب وتأكله التـــراب والهوام والدود ونحن نحرقه بالنار فى لحظة فيدخل فى الجنة من وقته وساعته

ثم ضحك ضحكا مفرطا فسألت عن ذلك فقال « من محبة ربه له قد بعــث الريح حتى تأخذه فى ساعة » فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والجارية والمولى رمادا ثم بنوا على موضع السفينة وكانوا قد أخرجوها من النهر شبيها بالتل المدور ونصبوا فى وسطه خشبة كبيرة خدنكا وكتبـوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا » (ص 165 — 155)

ومن غريب الرسوم فى المآتم ما كان يقع فى بلاد الخزر عصرئذ عندما يموت ملكهم الاكبر ، فاقرأ فى هذا الموضوع عينة طريفة من تقرير ابن فضلان :

« ورسم الملك الاكبر اذا مات أن يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتا ويحفر له فى كل بيت منها قبر ، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل وتفرش فيه وتطرح النورة (chaux vive) فوق ذلك ٠ وتحت الدار نهر ، والنهر نهر كبير

يجرى ويجعلون القبر فوق ذلك النهر ويقولون » حتى لا يصل اليه شيطان ولا انسان ولا دود ولا هوام »

واذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلــك البيوت • ويسمى قبره الجنة • ويقولون « دخل الجنة » وتفرش البيوت كلها بالذهــب (ص 171 ــ 170) •

الديــن والعقــائــد :

ان دور المبشر المكلف بدعوة الشعوب التركية والصقلبية الى اعتناق الاسلام أساسى فى مهمة ابن فضلان ولذلك كانت الارشادات الدينية بارزة فى رسالته ألا ترى أن ملك البلغار بعث كتابا الى الخليفة المقتدر « يسأله فيه البعثة اليه ممن يفقهه فى الدين ويعرفه شرائع الاسلام ويبنى له مسجدا وينصب لــه منبرا ليقيم عليه الدعوة له فى بلده وجميع مملكتــه ••• » (ص 68 ــ 67) وقد كلف ابن فضلان بالاشراف على فقيه فلا غرابة أن يوجه اهتماما كبيرا فى تقريره الى الملاحظات الدينية •

ويبدو ــ حسب شهادته ــ أن بلغار حوض الفولقا لم يعتنقوا الاسلام الا قبل وصول السفارة من بغداد بمدة قليلة والدليل على ذلك أن ملكهم زمنئذ اعترف لابن فضلان بأن أباه لم يكن مسلما • ودونك اعترافه فاقرأه : « ان أبى كان كافرا ولا أحب أن أذكر اسمه على المنبر وأنا أيضا فما أحب أن يذكر اسمــى اذ كان الذى سمانى به كافرا ، ولكن ما اسم مولاى أمير المؤمنين ؟ فقلت « جعفر » قال » فيجوز أن أتسمى باسمه ؟ « قلت » « نعم » قال » قد جعلت اســمى جعفرا واسم أبى عبد الله فتقدم الى الخطيب بذلك « ففعلت » (ص 118 ــ 117)

لكن ابن فضلان يناقض نفسه بنفسه فى هذا الموضوع عندما يفيدنا فى موطن آخر من تقريره أن أمير البلغار يعتقد أن تصادم السحاب والرعد انما هو عراك بين مؤمنى الجن وكفارهم ويزعم أن أجداده كانوا يقولون ذلك • (ص 124 ــ 123) وههنا دليل على أن اسلام البلغار قديم العهد سابق لعصر ابن فضــلان بقرن على الاقل كما يؤكده ابن رسته فى كتابه « الاعلاق النفيسة » اذ يذكــر لهم فى عصره مساجد ومدارس ومؤذنين وأيمة •

وعلى نقيض البلغار المسلمين كان أهل ذمتهم البشغرد عبدة أصنام « وكــل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الاحليل ويعلقها عليه فاذا أراد سفرا أو لقاء عدو قبلها وسجد لها وقال » يارب افعل بى كذا وكذا » (ص 108)

« ومنهم من يزعم أن له اثنى عشر ربا ، للشتاء رب ، وللصيف رب ، وللمطر

رب ، وللماء رب ، وللريح رب ، وللشجر رب ، وللناس رب ، وللدواب رب ، ولليل رب ، وللنهار رب ، وللموت رب ، وللارض رب • والرب الذى فى السماء أكبرهم الا أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق ويرضى كل واحد منهم بما يعمل شريكه « ويستغفر ابن فضلان ربه من كفرهم وشركهم فيقول : « تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا » • ويفيدنا أيضا أن طائفة منهم « تعبد الحيات وطائفة تعبد السمك وطائفة تعبد الكراكى •• » (ص 109 ـ 108)

وعلى عادته يجتهد ابن فضلان فى ترغيب الاتراك الغزية فى الاسلام لانهم ما تمسكوا بدين وما عبدوا شيئا فشبههم بـ « الحمير الضالة لا يدينون لله بدين ولا يرجعون الى عقل ولا يعبدون شيئا بل يسمون كبراءهم أربابا • فاذا استشار أحدهم رئيسه فى شىء قال له : « يارب ايش أعمل فى كذا وكذا ؟ » (ص 91)

وفى الخزر سادت اليهودية لان خاقان ملكهم الاصغر وسراة قومه اعتنقوا ذلك الدين • قال ابن فضلان : كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال فوجه يخطبها فاحتج عليه ورده فبعث وأخذها غصبا وهو يهودى وهى مسلمة فماتت عنده » •

وقد حذف سامى الدهان من الاصل العربى لرسالة ابن فضلان فقرة مفيدة عن دين الخزر وعن النزاع القائم آنذاك بين ملكهم اليهودى وبين رعاياه من المسلمين • ففى « اتل » عاصمة الخزر على نهر الفولقا بلغ عددالمسلمينعصرئذ عشرة آلاف وكان لهم مسجد جامع بمئذنة وثلاثون مسجدا •

وأخبر ابن فضلان فى ذلك الفصل المحذوف فى طبعة سامى الدهان المثبت فى الاصل فى تحقيق زكى فالدى وفى ترجمته الالمانية كما فى الترجمة الفرنسية لذلك النص عند ماريوس كانار ، أن خاقان أمر بهدم صومعة المسجد وقتل المؤذنين لما بلغه نبأ هدم معبد لليهود فى بلد اسلامى •

وابن فضلان فقيه مبشر فى تلك الفقرات الطويلة التى نقل فيها تفاصيل هامة عن عقيدة الروس الذين اعتنقوا دينا عمليا فكانوا عبدة الاه كبير وآلهة صغيرة منقوشة على أنصاب خشبية يبتهلون اليها أن تيسر لهم بيع بضاعتهم اذ كانوا تجارا وكانوا على غرار البراهمة الهنود يقدسون النار فى المآتم فحسب

ودونك هذه الفقرة الهامة الثرية بالمعلومات من ديانة الروس فى أوائل القرن الرابع الهجرى الموافق لمطلع القرن العاشر الميلادى :

« وساعة توافى سفنهم الى هذا المرسى (إتل عاصمة البلغار على نهر الفولقا) يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ حتى يوافى خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الانسان وحولها صور صغار ، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت فى الارض فيوافى الى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول لها : « يارب قد جئت من بلد بعيد ومعى من الجوارى كذا وكذا رأسا ومن السمور كذا وكذ جلدا » حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ثم يقول : « وجئتك بهذه الهدية » ثم يترك الذى معه بين يدى الخشبة ويقول : « أريد أن ترزقنى تاجرا معه دنانير ودراهم كثيرة فيشترى منى كل ما أريد ولا يخالفنى فيما أقول ، ثم ينصرف ٠

فانْ تعسر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهدية ثانية وثالثة فان تعذر ما يريد حمل الى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال : «هؤلاء نساء ربنا وبناته وبنوه» فلا يزال يطلب الى صورة صورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها فربما تسهل له البيع فباع فيقول : « قد قضى ربى حاجتى وأحتاج أن أكافيه » فيعمد الى عدة من الغنم او البقر فيقتلها ويتصدق ببعض اللحم ويحمل الباقى فيطرحه بين يدى تلك الخشبة الكبيرة والصغار التى حولها ٠ ويعلق رؤوس البقر أو الغنم على ذلك الخشب المنصوب فى الارض ٠ فاذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت جميع ذلك ٠ فيقول الذى فعله : « قد رضى ربى عنى وأكل هديتى » ٠ (ص 153 — 152)

السياســـة :

لم يكن للسفارة هدف دينى فحسب بل كان لها أيضا وبصفة أخص هدف سياسى جد هام لملك البلغار نفسه ٠ فبواسطة رجاله المبعوثين فى وفد السفارة أراد الخليفة المقتدر أن يلقن البلغار تعاليم الاسلام ويستجيب لرغبة ملكهم المسلم فى بناء حصن يتحصن فيه من أعدائه ملوك الخزر اليهود ٠

ويفيدنا التقرير بعديد من الارشادات ذات القيمة السياسية ويكشف لنا خاصة عن سبب تعثر مهمة السفارة ٠ فرغم جهر ملك البلغار بالولاء للخليفة العباسى فانه رفض اتباع المذهب الشافعى السائد فى بغداد عصرئذ وفضل البقاء على مذهب أبى حنيفة على غرار الحنفية فى آسيا الوسطى والسمانيين ، فلعله أراد بوقوفه ذلك الموقف أن يعبر عن خيبة أمله فى السفارة لان المقتدر لم يلب جميع رغباته وأهمها ارسال المال من بغداد لبناء الحصن ٠

وابن فضلان مدرك لاهمية الدور الذى لعبه لتركيز سلطة الخليفة العباسى

الروحية فى حوض الفولقا فقد أفادنا مثلا أن الخطبة قبل حلوله ببلاد البلغار كانت تلقى فى المساجد باسم ملكهم فجعلها للخليفة المقتدر ٠ (ص II8 ـ II7)

أما السمانيون في خراسان فكانوا معترفين بالسلطة الروحية للخليفة العباسى حسب ما أورده ابن فضلان فى حديث جرى بين وفد السفارة وبين الامير السامانى نصر بن أحمد أمير خراسان ، فاقرأ هذا الحديث لاهميته السياسة : « فدخلنا اليه وهو غلام أمرد فسلمنا عليه بالامرة وأمرنا بالجلوس ، فكان أول ما بدأنا به أن قال : « كيف خلفتم مولاى أمير المؤمنين ؟ ـ أطال‌الله بقاءه وسلامته فى نفسه وفتيانه وأوليائه » ٠

فقلنا : « بخير » قال : « زاده الله خيرا » ٠ (ص 77)

وفى فصل آخر سجل ابن فضلان حديثا جرى بين وفد السفارة وبين أمير خوارزم ، وهذا الحديث يدل على أن الامير لم يكن ينظر بعين الرضا الى قيام علاقات متينة بين بغداد وبلاد البلغار كما تبينه العينة التالية : « فدخلنا على أميرها (أمير خوارزم) محمد بن عراق خوارزم شاه فأكرمنا وأنزلنا دارا ٠ فلما كان بعد ثلاثة أيام أحضرنا وناظرنا فى الدخول الى بلد الترك وقال : « لا آذن لكم فى ذلك ولا يحل الى تركِكم تغررون بدمائكم وأنا أعلم أنها حيلة أوقعها هذا الغلام ـ يعنى تكين (دليل السفارة) لانه كان عندنا حدادا وقد وقف على بيع الحديد ببلد الكفار وهو الذى غر « نذيرا » وحمله على كلام أمير المؤمنين وايصال كتاب ملك الصقالبة اليه ٠ والامير الاجل ـ يعنى أمير خراسان ـ كان أحق باقامة الدعوة لامير المؤمنين فى ذلك البلد لو وجد محيصا ٠٠٠ » (ص 8I ـ 80)

ويفيد التقرير أن اقليم الديلم وطبارستان جنوب بحر القزوين سيطر عليه زمنئذ العلويون الامر الذى أدى بأعضاء السفارة الى التنكر فى القافلة بالدامغان حيث صادفوا « ابن قارن » من قبل الدعى الشيعى فساروا مجدين حتى قدموا نيسابور ٠ (ص 74) ٠

ويشير التقرير الى خضوع الاتراك الباشغرد للبلغار وخوارزمشاه‌للسمانيين

ومن جهة أخرى سجل ابن فضلان ملاحظات طريفة فى رسالته عن مراتب الحكومة وأدب السلوك عند ملوك الخزر ، فأشار الى السلطة الاسلامية لخاقان (أو خاقان الكبير) والى السلطة الفعلية لخليفته خاقان به ٠ وحتى عصر ابن فضلان أى الى أوائل القرن الرابع الجهرى أمكن لمملكة الخزر أن تحافظ

على قوتها وتقف في وجه الخلافة العباسية : فاقرأ هذه العينة الدالة على نظام الحكم وأدب السلوك عند ملوك الخزر :

« فأما ملك الخزر واسمه خاقان فانه لا يظهر الا في كل أربعة أشهرمتنزها ويقال له خاقان الكبير ويقال لخليفته خاقان به وهو الذى يقود الجيوش ويسوسها ويدبر أمر المملكة ويقوم بها ويظهر ويغزو وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه · ويدخل في كل يوم الى خاقان الاكبر متواضعا يظهر الاخبات والسكينة ولا يدخل عليه الاحافيا وبيده حطب فاذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب فاذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه · ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان ويخلف هذا أيضا رجل يقال له جاوشيغر ·

ورسم الملك الاكبر أن يجلس للناس ولا يكلمهم ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا · والولايات في الحل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به · (ص 170 ـ 169)

وتدل وثيقة ابن فضلان على أن مملكة الخزر في القرن الرابع الهجرى كانت أقوى من مملكة البلغار كما تدل أيضاً على أن سلطة ملوك الخزر كانت تمتد بعيدا الى الشمال الغربي فكان البرطاس والبلغار يؤدون ضريبة الى الخزر اليهود (أنظر ترجمة ماريوس كانار ص 142 وقد حذف هذا الفصل من طبعة سامى الدهان لرسالة ابن فضلان) ·

قام ابن فضلان بمهمته بكبير جد وحزم كما يشهد بذلك تقريره وان لم تحق سفارته جميع ما كانت تأمله · ويؤكد « ماريوس كانار » في مقدمة ترجمته للرسالة التي نحن بصدد درسها أن الحكاية التي وصلتنا عن السفارة ليست تقريرا رسميا ويفترض أن التقرير قد ضاع (ماريوس كانار ص 143) · واذ تنقصه البراهين لاثبات رأيه فان النص على حالته الحالية والمعلومات القليلة التي لدينا عن كتابه لا تسمح بالجزم في اعتبار هذا التأليف قسما من التقرير الرسمي أولا ·

ومهما يكن من أمر فان هذه الوثيقة تهدف الى افادة الخليفة وادارته المركزية افادة مباشرة · غير أنها ليست مجرد تقرير فحسب بكل ما في كلمة تقرير من معنى إذ لم يكن ما كتبه ابن فضلان الا استجابة لرغبة حكومية في ظروف السفارة ·

انها شيء آخر بالاضافة الى كونها تقريرا · انها نوع من أدب الرحلة ومؤلفها هو طبعا رحالة مكلف بمهمة ولكن هذه الصفة لم تمنعه من التجرد · ألم يكن كشافا مغامرا وطلعة دقيق الملاحظة تشهد حكايته على اتصاله المباشر بالبشر وبالطبيعة طوال رحلة السفارة ؟ (يتبع)

بلا عنوان

قصة ، بقلم : آمنة بن مصطفى

كانت الشمس محرقة فى ذلك الصباح ، وكانت وطأتها قاسية على من اجتمعوا فى قاعة الاستقبال ينتظرون قدوم الطبيب ٠ وجلست امرأة بدينة على مقعد من تلك المقاعد الحمراء القديمة وبالقرب منها ابنها وابنتها ٠ وفى الناحية الآخرى من القاعة استراح رجل غريب عنهم ٠

وشرعت الآم تتحدث مع ولديها حديثا تافها ولكنها سعت فى مواصلته ٠

وكانت الام تتحدث وطفلاها يكثران من الاسئلة ٠ ولكن الرجل المجاور لهم لم يخرج عن صمته ٠

وفجأة صاحت الأم قائلة عندما اعتلى ابنها المقعد وأخذ يقفز عليه فأثار الغبار : « محمد كف عن الهرج والزم مكانك » فاقترب الصبى من أمه فى ضيق وانكب يتصفح معها مجلة من المجلات التى تكدست على المنضدة ٠ وكان الطفل كلما شاهد صورة استوضح أمه عن معناها فى الحاح ٠

ونظرت الأم الى الرجل الجالس قبالتها فبدا لها أنه ضاق بثرثرتها وهذر ولديها فتلهى بتحريك منديله تارة باليد اليمنى وطورا باليد اليسرى علـه يخفف من وهج الحرارة الذى لفح وجهه ٠

واندفعت البنت تنشد بيتا واحدا من أنشودة تعلمتها فى المدرسة ٠٠٠ « ديكى ٠٠٠ ديكى ٠٠ أنت صديقى ، أنت أنيسى ٠٠٠ » وأعادت البيت مرارا فى دون ملل وبصوت مرتفع ٠٠

وتململ الرجل وبدا عليه الضيق فى وضوح ، ونظر الى الأم فى حدة ، فنادت ابنيها فى صوت خافت خجول وقالت : تعاليا أقصص عليكما حكاية طريفة » ٠

وأقبل الصبيان فى بطء لم تهزهما الفرحة عند هذا الاقتراح فطالما أعادت عليهما الام نفس الخرافات التى لم تعد جديدة حوادثها بالنسبة لهما ولا ممتعة وهكذا اندفعت الام تقص عليهما فى صوت هادىء خرافتها المعهودة : « كان

يا ما كان فى قديم الزمان بنت صغيرة أحبها كل الناس لانها كانت مثال الطاعة والتربية ، هجم عليها ذات يوم ثور هائج فأنقذها كثير من الناس المعجبين بخصالها الحميدة ... »

فاندفع الصبى يقول فى ضيق : « ان هذه الخرافة مملة جدا جدا يا أماه » .

وأما البنت فانها لم تبد أية ملاحظة ولكنها عادت الى البيت الوحيد الذى علق بذهنها فتلهت بالقائه دون ملل . وكف الرجل عن تحريك منديله وتجفيف العرق المتصبب على جبينه وخاطب الام قائلا : « يبدو لى يا سيدتى أنك لست بارعة فى فن القصص ... »

فاغتاظت الأم من هذا الرأى الذى ابداه هذا الرجل الغريب عنها وأجابت بلهجة غضبى

– لتعلم يا سيدى انه من العسير جدا ان أوفق فى امتاع الصبيين بقصة تعجبهما ويفهمانها فى وقت واحد .

– أنا لا أوافقك فى هذا الرأى .

– لعلك تريد أن تقص عليهما انت شيئا ممتعا ؟

فصاح الصبى فى أنفعال .

– أجل نريد ان نسمع قصة ممتعة

فشرع الرجل يقول

– كان فى ما مضى بنت صغيرة تدعى « ريم » وكانت طيبة الاخلاق ...

وأحس الصبيان بالخيبة بعد ان انتبها كل الانتباه . يا للعجب ان كل القصص متشابهة رغم تنوع القصاصين !

وتابع الرجل حديثه قائلا .

... وكانت هذه البنت طيعة تقوم بكل ما تؤمر به ، فلا تكذب أبدا ولا تضيع لعبها وتقوم بواجباتها المدرسية كما ينبغى فكانت على حد كبير من الطيبة حتى تحصلت على عدة « ميداليات » ذهبية لحسن سلوكها . فجعلتها فى قلادة وزينت بها جيدها ...

وقاطعته البنت قائلة :

« وهل كانت « ريم » جميلة ؟

– نعم مثلك انت تماما يا صغيرتى ...

... كان لتلك الفتاة اذن « ميدالية » للطاعة وأخرى للمحافظة على المواعيد وأخرى وأخـرى ...

وكانت هذه « الميداليات » ذهبية لماعة ترن كلما سارت هذه البنت ...

ولم يكن لاى فتى أو فتاة من سكان تلك المدينة ما لهذه الفتاة من«ميداليات» وما آنفك الناس يمجدون طيب أخلاقها حتى سمع أمير البلاد عنها فسمح لها بأن تتجول مرة فى الاسبوع فى حديقة قصره الذى يوجد خارج المدينة .

وكانت حديقة القصر متناهية فى الجمال ولم يكن لاى صبى آخر الحـــق فى دخولها . فكان ذلك الاذن فخرا كبيرا بالنسبة لـ « ريم » .

وسأل محمد الرجل قائلا :

« وهل كان فى تلك الحديقة خرفان ؟

ـ كلا لم يكن فى تلك الحديقة خرفان

ولكـــن لمـــاذا ؟

ـ ان حديقة الامير خلت من الخرفان لان والدته رأت فى المنام ان ابنهـــا سيموت مقتولا وسيقتله خـــروف ...

وقد أيد المنجم رؤيا الام ... على كل حال فلقد كانت حديقة الامير مملوءة بالخنازير . وقد تأسفت تلك البنت أسفا شديدا لانها لم تجد أية زهـــرة فى تلك الحديقـــة ... »

فسأل محمد فى الحاح قائـــلا :

ـ ولماذا خلت تلك الحديقة من الزهور ؟

ـ لان الخنازير أكلت كل أصناف الزهور التى كانت تزين الحديقة .. فكان على الامير اما التخلى عن الزهور أو المحافظة على الخنازير ففضل اتلاف الزهور وابقاء الخنازير ...

وهكذا تجولت « ريم » فى تلك الحديقة الجميلة والسرور يملأ قلبهـــا وهى لا تنفك تردد فى قرارة نفسهـــا :

« لو لم أكن طيبة الاخلاق لما سمح لى بدخول هذه الحديقة والتمتع بمشاهدة كل ما فيهـــــا ... »

فكانت تتنزه و « ميدالياتها » ترن فتذكرها فى كل آونة بأنها مفرطة فى الطيبـــة ...

وبينما هى كذلك ذات يوم اذ دخل ذئب فجأة الحديقة عله يقبض علـى خنزير صغير سمين مكتنز . غير أن أول شىء شاهده كان « ريم » الصغيرة .

ولما لمحته « ريم » اسرعت هاربة والذئب يجرى خلفها وأستطاعت البنت ان تصل الى شجر كثيف وان تستتربه ...

وانتقل الذئب من عشب الى عشب يتشمم رائحة « ريم » وهو يشتعل غيظا متدلى اللسان محمر العينين وقد تعرت أنيابه الحادة ...

وقالت « ريم » فى نفسها وقد خنقتها العبرة وتملكها الخوف :

« لو لم أكن طيبة لما خفت مثل هذا الخوف بل ربما كنـت الآن هادئـة مرتاحة البال فى المنزل ... »

وكانت رائحة العشب قوية جدا فمنعت الذئب من الاهتداء الى مخبىء «ريم»

ومل الذئب البحث عنها بين العشب المشتبك فقرر ان يبحث عن خنـزير صغير ليفترسه ...

وكانت « ريم » تزداد ارتعاشا كلما قرب منها الـذئب ولشـدة ارتجـاف أوصالها واصطكاك اسنانها احتكت « الميداليات » بعضها ببعض فصدر عنهـا رنين هدى الذئب الى مأواها فارتمى فى العشب يدوسه بقدميه .. وأخـرج الفتاة من مخبئها ثم أكلها حتى أتى على آخرها فلم يبق منها الاحذاؤها وبعض القطع من ثوبها و « ميدالياتها » ...

وصاح محمد فى اعجـاب .

ـ يالها من قصة جميلة ! حقا انها أحسن قصة سمعتها الى حدا الآن .

ولكن الأم لم تكن موافقة . فقالت فى غيظ :

ـ قصتك يا سيدى غير صالحة للاطفال . ان الجهد الذى بذلته فى تعليمهما الخصال الحميدة ذهب سدى .

فقال الرجل فى سخريـة .

ـ على كل حال لقد استطعت ان أرتاح من هرج هذين الطفلين طيلة ربـع ساعة حتى جاء دورى ليعودنى الطبيب .

آ ٠ م ٠

مطالعات

كتاب تبسيط العروض

تاليف : نور الدين صمود

نقد : محمد اليعلاوى

كان تعليم العربية عندنا ـ ولا يزال ـ مفتقرا الى أدوات تدريس كالكتب التى تصحب التلاميذ والطلبة طوال دراستهم ، وتسهل على أستاذ اللغة مهمته. ولئن سدت منشورات الديوان التربوى بعض الفراغ فى النحو والصرف والبلاغة ، فان تعليم العروض يفتقر الى كتيب مختصر مبسط ، مولف على منهج عصرى وحسب طريقة بيداغوجية صالحة ، ليكون عونا للاستاذ وللتلميذ على استيعاب هذه المادة الهامة .

وقد انبرى السيد نور الدين صمود فألف كتابا غزير المادة جامعا بين مبادىء الشعر التقليدى ونظريات الشعر الحديث أو الحر ، ومعرجا على المحاولات التاريخية التى عملت ، منذ امرىء القيس فى مسمطه ، الى ابن سهل فى موشحاته وابن قزمان فى ازجاله ، على التخلص من قيود العمود الشعرى وحتى من قواعد اللغة الفصيحة . وللمؤلف حسب ما يظهر من كتابه ، باع فى الشعر ، فهو لا يتردد فى الحكم على المحاولات العصرية أو لها ، وهو الى الشعر المعاصر أميل ، وخصوصا الى ذلك النظم الذى تشدو به قينات العصر الحديث على أمواج الاثير . ولعل فى اختياره لهذه الابيات «الغنائية» المعاصرة كشواهد على ما يقول ويستنبط ، دافعا لشبابنا على تذوق الشعر وممارسته .

أول ما يلفت الانتباه فى هذا الكتاب ، جملة من الاخطاء « البيداغوجية » التى تخل بمبدأ التوضيح والتدقيق ـ من ذلك ، خلو الابيات الواردة فى التمارين والنماذج من الشكل ، وحتى الاوزان تخلو غالبا من الحركات الصوتية فيصعب على الدارس معرفة المقاطع ـ أى الحركات والسكنات كما يقول المؤلف التى يبنى عليها استنتاجه . فاذا كتب « متفاعل » مثلا ، مهملة لا مشكولة ، فكيف نقرؤها ـ متفاعل ، بتسكين الثوانى ، أى ، « مفعولن » ؟ أم « متفاعل » مثل « متقاعس » ، أم متفاعل بسكون السادس ، أى « فعلاتن » ؟ (انظر ص

56 من الكتاب) • ومن ذلك أيضا ، أن يطالب القارىء ـ ص 17 ـ بتقطيع أبيات من خمسة أبحر لم يسبق ذكرها ولا تحليلها ولا حتى رسمها • ثم ينتبه الى سهوه ، فيضيف ـ ••• استعن « بجدول البحور الآتى ذكره لمعرفتها » ، ولكن ذكره يأتى بعد أربع صفحات ، مع أن المؤلف قرر فى مقدمته أنه « لا يمكن أن نفهم اللاحق الا بفهم السابق وحفظه » • وكذلك الشأن فى مصطلحات عروضية ـ عروض ـ ضرب ـ حشو ـ فقد ذكرت وبنيت عليها استنتاجات قبل أن يعرف بها ويحددها (الاستنتاجات ص 16 ، والتعريف ص 21) •

ومن السهو أيضا ، أن يهمل المؤلف أسماء الشعراء ، والمصادر التى انتقى منها شواهده ـ الا فى القليل النادر ـ فمن الغريب حقا أن يقفى كتابه بثلاث عشرة قصيدة من الشعر الحر دون أن يذكر لها قائلا ، ويرسم لها مرجعا (ص 198 الى 212) • ومن السهو ، عدوله عن باب أقحمه فى الدروس بعنوان «أسئلة» بين الدرس السادس والدرس الرابع والعشرين ، دون أن يكون هناك مرجح لاثباته أو لحذفه •

ولئن أعجبتنا طريقة التمرين التطبيقى اثر كل درس ، فقد ظهر لنا أن كثيرا منها فى غير متناول التلميذ الريض ولا حتى الاستاذ المتوسط الدراية بعلم العروض • ونسوق مثلا التمرين « ج » من ص 57 ـ فقد عرض المؤلف أربعة أبيات للتقطيع وأشعر القارىء بأن فيها أخطاء عروضية • وبعد البحث يتبين أن البيت الاول اعتراه جواز معروف مباح ، وهو انتقال همزة القطع الى همزة وصل ، وان الثانى ـ ان لم يصبه التحريف ، وأين التحقيق ، وقائله منسى ومرجعه مسكوت عنه ؟ ـ فهو باق على وزن الكامل المجزوء باعتبار ضمير المتكلم « أنا » ، لا مقطعين طويلا فقصيرا ـ آن ـ أو قصيرا فطويلا ـ أنا مثل لها ـ وكلاهما جائز ، بل مقطعين قصيرين ، بدليل بيت ابن زمرك الذى اشتشهد به المرحوم الشيخ ابن أبى الشنب فى ص 50 من ميزان الذهب ـ

أنـا منشد ، ما فى وقـو فـك ساعة من بـاس

أما الثالث والرابع ، فقد بدئا بجزء « مفتعلن » عوض « متفاعلن » ، وهذا زحاف مستقبح ، ولكنه غير محظور ، ويسمى خزلا • وعليه ، فليس فى الابيات الاربعة من خطا سوى خطا التقدير من المؤلف الذى افترض للقارىء معرفة مدققة بهذه الزحافات الركيكة ، وقد قرر من البداية اهمالها •

وهناك أحكام نظرية أقل ما يقال فيها فيها انها قابلة للنقاش مثل الاحكام التقييمية الصادرة عن رأى خاص من المؤلف دون استدلال ولا تحليل للنظرية ـ

مثلا قوله (ص 79) « والبيت الذى يقع فيه زحاف » مستفعلن متفعلن مفاعلن « أخف من الذى لا يقع فيه » . وكذلك (ص 96) - وبينها « أى بين الرمل والمديد والخفيف - فرق بسيط فى الحركات والسكنات ، ولكن هناك بون شاسع بينها من حيث النغم الشعرى » . وربما تناقض المؤلف فى استنتاجاته، بحكم عزمه على التشذيب والتقويم « والتفسير » الذى اعتزمه فى المقدمة ، شأنه فى ص 15 الجواب الرابع ، حين يقول - « ولا يكون الزحاف فى « الاوتاد » ، بعدما أثبت جوازه فى السطر الرابع من الجدول الذى رسمه فى أعلى الصفحة نفسها ، قال - « فاعلن فعلن ، بحذف الثانى الساكن ، ويجوز تسكين ما يليه » . أما رأى أن الذى يليه هو الوتد ؟ ويحدد الضرب والعروض (تنبيه 21) فيقول ما معناه - لا يكون الجزء ضربا ولا عروضا الا اذا بدىء بوتد ، فاذا صدر بسبب ، خفيف أو ثقيل ، خرج عن أن يكون ضربا أو عروضا . ولو صح هذا الحكم ، لامتنعت الاجزاء التالية - فاعلن - مستفعلن - فاعلاتن - متفاعلن ، من أن تكون عروضا او ضربا ، وامتنع بالتالى أن يكون للبسيط ، والمديد والمتدارك والرمل والكامل والرجز ، أعاريض وأضرب . فلا غرابة ، بعد هذا ، أن يتهم عبيد بن الابرص بالاختلال فى أوزان معلقته (وهى من مخلع البسيط ، فلها أن تتأرجح فى ضربها وعروضها بين مفعولن فعولن ، رغم ما ادعاه العروضيون من أن العلة فى الضرب والعروض واجبة التكرر) .

وبعد ، فهذا الغموض والابهام ، بله الغلط ، لا يسهل مهمة الاستاذ فى فصله ، فضلا عن تلميذ السنة الرابعة . وان يعمد السيد نور الدين صمود الى مراجعة كتابه ، فيعيد تبويبه من الدرس الرابع ، ويترك الحديث عن البحور النادرة « التجريبية » مكتفيا بدرس الموشحات والشعر الحر - وقد وافقت هواه - ، يوحد طريقة العرض ، ويشكل الشواهد والاوزان ، ويذكر الشعراء والمصادر التى استقى منها شواهده ويطهر كلامه من الاخطاء العارضة الخلط بين الظاء والضاد - ، ويزيد تثبتا فى الاحكام والاستنتاجات بالرجوع الى ما كتبه القدماء والمحدثون . وكذلك ، ان يترك السؤال الساذج ، ويعلق على النصوص التى اختارها من كتاب الفصول والغايات للمعرى ، ويتجاسر على استخراج قواعد مبسطة ، ان يقدم على هذا يصر كتابه صالحا للقراء والدارسين والله لا يضيع أجر المحسنين .

م. ى.

نقد كتاب الاستاذ الحليوى : (*)

الذاتية التونسية في أدب الربع الثاني من القرن

بقلم : أحمد القديدي

ان افتقادنا للدراسة الادبية الرصينة أصبح يشغل بالنا بأستمرار ، ذلك أن الباب ما فتىء يفتح أمام الخاطرة الموجزة واللمحة العابرة دون استشراف كيان الفكر التونسي والغوص فى خفاياه • اذ ما تزال جرائدنا تطالعنا بالنقد السريع لما ينشر • ونحن اذ نرى هذا الرأى انما نعجب شديد العجب حينما نقرأ بعض ما كان يقوله النقاد ورجال الادب فى الثلاثينات والاربعينات من قرننا الحاضر حيث كان شغل التونسيين الشاغل : « اقرار جذور للذاتية التونسية » بشتى ضروب النضال حزبيا كان أم نقابيا أم فكريا أم اجتماعيا • ولنا فى الحبيب بورقيبة ومحمد على وفرحات حشاد والشابى والطاهر الحداد والطاهر صفر ما يجعلنا نعتز بهذا الرصيد الزاخر بالبطولات ، ونفتخر بهؤلاء الذين جاهدوا فى سبيل ارساء قواعد القومية التونسية •

كيف نرى هذه القومية ؟

ان الوضع الجغرافى للبلاد التونسية كان منذ القديم يؤهل هذه الرقعة من الارض لتكون جسرا بين شرق الحضارة وغربها ••• ولعلنا كنا أكثر من جسر ، حيث أغترفنا من الثقافتين ، وانك لواجد فى آثارنا القديمة قبل الاسلام وأنتصابه أطلال المعبد الى جانب أطلال المعمل الى جانب أطلال المسرح مما لا محالة يدفعك الى التأمل فى عناصر حضارة البلاد • فالمعبد هو ضمير الشعب ومركز تأمله فى الكون ومصدر ايحاء ماورائى لا ينضب • والمعمل اشارة لازدهار العمران والنزوع الى المادة واستجابة صريحة لروح التطور العلمى ، كما أن المسرح رمز لفلسفة الحوار وتتويج لارادة الامة على التشاور والتثقف والتأثير • فالأمة التى احتضنت حضارات عديدة ومتباينة الكيان ، قد هضمت جل ما أخذته عنها ، وابتدعت اذ الابداع من خصال الشعوب القادرة والواعية • فكان « دومودور » و « سان أوغستان » من أكثر ادباء ومفكرى تونس قبل الاسلام والعربية تعبيرا على الابداع الاصيل

(*) فى الأدب التونسى للأستاذ محمد الحليوى ـ الدار التونسية للنشر ـ جانفى 1970 •

وتفجيرا لقومية هذه الامة المجيدة ، ثم ساد صمت موحش بعد الاسلام ، ماعدا طفرات ضئيلة من اشعاع فكر صادق الى أن تحرك رجال اوفياء لهذه الارض ، تحركوا فى مجالات عديدة يعيدون لتونس كيانها وشخصيتها ويوقظونها من رقدة التاريخ الكاسد ٠

مساهمة الادب فى الحضيرة القومية :

اذا كان دور السياسة معروفا لدينا الآن واضح المعالم ، فان رسالة الادب مازالت مجهولة لا تكاد تذكر ٠ وما من دارس لشعر الشابى ونثره ألح الالحاح العلمى الكامل على هذه الناحية بالذات ٠ فارادة الحياة ونبذ الموت لدى شاعرنا النابغ ينبعان من نفسية تونسية جبارة يجب الربط بينها وبين تفكير الاستاذ المسعدى ، كما أن درس الشابى لقضية الخيال وعقم الادب العربى وتفكيره الجرىء تندرج ضمن احساس الشابى بوطأة قوميته الصادقة المنغرسة الجذور وفى هذا السياق ايضا نضع نظرة الطاهر الحداد للمرأة ودفاعه عن نظرة خاصة للعلاقة الزوجية كما أننا نضع فى نفس الاطار خواطر الطاهر صفر فى منفاه وهى لا تمت بأية صلة واضحة للادب العربى أو الفكر الاسلامى بل هى أقرب روحا وشكلا من تأمل الغربيين ، وليس فى ذلك غرابة أو موطن دهشة إذ أننا كنا دائما منفردى الملامح ، لا نأخذ من فاتحينا سوى القالب اللغوى الجوهرى فنطوره ونشحنه بطاقة فكرية باسلة تتجاوز متانة وقوة ما كتبه أهل اللغة الفاتحون ٠ (راجع الادب التونسى اللاتينى والبربرى) ٠

مكانة الحليوى فى هذه الحضيرة :

ان جهاد الاستاذ محمد الحليوى واخلاصه للادب والفكر يستحقان حتما رعاية كل النوايا الصادقة ٠٠ فهذا الرجل الذى يصدر لنا اليوم مجموعة قيمة من مقالاته فى الصحافة والمجلات ، ساهم مساهمة جليلة فى ابراز الذاتية القومية فى ناحية طريفة من نواحى الادب وهى « النقد » فلقد شغل استاذنا نقاد الربع الثانى من هذا القرن بما ابداه من سديد الآراء الجريئة وما أبدعه من رائع الافكار ٠ فهو يذكرنا فى مقدمة كتابه بغرض نشره لهذه المقالات حيث يقـــول :

« ومما لاشك فيه أننا لم نستثمر بعد فى تونس هذه الثروة الضخمة من أدب المقال النائمة فى بطون النشريات منذ ما يقارب نصف قرن ، **والتى تمثل جهود عشرات السنين من الكتابة والنشر والكفاح فى سبيل نشر أدب تونسى** بعد أن عاش هذا الادب قرونا عديدة يأخذ من الادب العربى ولا يعطى أو ظل قانعا بالادب المصدر من عواصم الشرق دون أن يدخل يوما فى حسابه » اذن فغاية الحليوى ومن نحا نحوه من أدباء جيله كانت تكوين أدب تونسى يحمل

كيان هذه الامة ويتغنى بآمالها وآلامها . ويمضى الحليوى فى مقدمته متحسرا على انعدام السند التونسى فيما تقرأه الاجيال ، داعيا لنفى نفسية « اليتم الثقافى » فى بلادنا ، فيقول : « وبذلك نشأ تلامذتنا وطلابنا على هذا الجهل الشائن بكل ما يتعلق بالادب التونسى وحملة الاقلام التونسيين والمغاربة بينماهم يعرفون أشياء كثيرة عن أدباء الشرق وأعلامه ومؤلفاته .

وبذلك نعتقد اعتقادا راسخا أن هدف الحليوى وجيله بصفة عامة لم يكن الخلق فحسب بل هو خدمة قضية الامة التونسية ببعث أمجادها والبحث عن عناصر شخصيتها وهو هدف لامحالة نبيل وشريف .

دعائم الامة فى كتاب الحليوى :

أول دعوة صريحة لبناء أدب قومى وردت فى الكتاب كانت دعوة المرحوم محمد البشروش « بجريدة النهضة «فى صيف عام 1930 جاء فيها قوله مثلا : « وليس للشعوب العربية أدب قومى يميز كل شعب عن الآخر ، وانما لها أدب هو صورة للروح العربية عامة يعبر عما انتابها وطرأ عليها من المؤثرات والحوادث ... » يستعمل البشروش هنا اصطلاح « الشعوب العربية » ويضيف معللا رأيه قائلا :

« حتى يكون لكل بلاد عربية أدب تتلمس فيه روحها ونفسيتها ، وتظهر به للعالم أمة مستقلة لها مميزاتها ... » نلاحظ هنا اصطلاح : استقلال ويثير هذا الرأى جملة من الردود من بينها وأهمها رأى الاستاذ الحليوى الذى يتحمس للفكرة قائلا :

« ان فكرة الادب القومى فكرة شريفة ترمى الى غرض شريف وليس فيها كيد للغة أو قضاء على القرآن .. ان الادب القومى كما أفهمه ـ أدب يعنى قبل كل شىء بوصف الحياة القومية فى كل مظاهرها ، ويتناول حياة أهلها بما فيها من جمال وبساطة ... »

ثم يتصدى الحليوى لنقد الادب التونسى على ضوء هذه العناصر القومية . فيصدع برأى جرىء حى ، قائلا :

« أما نحن ، فلو قدر لآثارنا أن يتناولها دارس بعد مائة من السنين ، يحاول أن يتعرف من خلالها على حياتنا ويلم بأساليب عيشنا ومميزات عصرنا ، ويؤلف من كل ذلك صورة صادقة لمجتمعنا ، فماذا عساه يجد ؟ لاشك أنه واجد كلاما كثيرا لا يصور حياتنا باخلاص وصدق ، بل يجد جهلا فاضحا بوظيفة الادب فى حياة الأمة ، وتقليدا أعمى لاقوام مضوا وبادوا ، ونتاجا كاذبا لا يترجم عن واقع أو حقيقة ولا يمت الى حياتنا الحاضرة الا بأوهى الاسباب » .

بهذه الحدة ، يعانى الحليوى أزمة الخلق الفكرى فى تونس ، ونحس أكثر فأكثر بتوق الفنان الى الحرية فى التعبير والافصاح ، حيث كان جيلـه يتـأزم لهذه المأساة التى صنعها ذوو العمائم من « كبار الحومة » فى الادب ، الذين يقدسون معلبات الحضارة دون تفكير سليم • والذين قصدهم الحليوى بقوله : « حتى اذا حاول أحدنا أن يأخذ لنفسه **حرية التصور والتخيل** ، ويطلق عقله من **أسر التقليد** ، صاحوا به من كل جانب وأتوه من كل حدب وصوب ، وأقاموا على العربية مناحة ودعوا بالويل والثبور على كل من قام يدعو الى ترك النفاق والكذب أو **يمزق الاقنعة المزيفة** ، وقالوا : « انما يفسد عمود الشعر العربى ويحطم صرح العربية ، ويحاول التفريق بين اهلها ، وانه ينكر ماضيها أو يتنكر لـــه ••• »

هذه ملامح الصراع بين الاجيال ، جيل تقليدى تلقى ثقافـة اسلاميـة لـم تتجاوز قواعد اللغة القديمة وأركان الفقه والتوحيد وجيل آخر آمن بضرورة الكرع من عدة أحواض والغوص فى الماضى ليستمد منه أروع واجدر ما فيه ، مع غربلة الفكر العربى من شوائب التقهقر ونخالة السقوط **والانحلال** • وينهى الاستاذ الحليوى جملة أفكاره الثورية الرائعة بتعريف موجـز للادب القومى قائلا ، مستخلصـا :

« فمسألة انتاج أدب قومى ليست اذن مسألة عصبية أو **مؤامرة لاغتيـال اللغة العربية** ، وانما هى منحى من مناحى الادب وصورة من صوره ، **يطبـع منتجات الكتاب** والشعراء بطابع الامة الخاص ••• »

الملامح التونسية عبر الشخصيات الادبية :

بعد أن بسط الاستاذ الحليوى جملة آرائه فى القومية والادب الخاص بكل شعب ، بعد أن طرح القضية فى نقد صريح لا لبس فيه ، يمضى فى دراسة عدد من الشخصيات الادبية دراسة يتبين فيها القارىء الحصيف ملامح الأمـة ومميزاتها فهذا النقد ليس فحسب تعريفا بهؤلاء الادباء ، بل وأبعد من ذلـك أستقصاء لجذورهم • ومقارنة بينهم وبين قدماء الغربيين ومعاصريهم • فدراسة أبى القاسم الشابى تتسم أولا بطابع الصداقة والالفة بين الشاعر وناقـده ، وثانيا بابراز نواح طريفة وفريدة من شخصية الشابى وشاعريته كنابغـــة تونسى •

فالشـابى فى دراسـة الحليـوى قريب من المناخ الرومنتيكى فى فلسفته المتبرمة • يعانى حالة « التأزم الرومنتيكى » هذا الذى عاناه أبطال رومنتيكيون مثل روى بلاس بطل هيجو ، وشترتون بطل دوفينى وفرتر بطل قوته ورونى بطل شاتوبريان ومنفريد بطل بيرون • فى هذا المدار يضع الحليوى صـديقه

الشابى اذ هو أحد أبطال الروايات والملاحم الرومنتيكية ، بما يحملون فى نفوسهم من ذبذبة وبحث متواصل عن الحقيقة ، ويلح الحليوى على فكرة « ادماج الانسان فى الكون » وحمله لمأساة الحياة فى قلبه ، فالانسان الفنانْ فى تونس هو الذى يزخر قلبه فعلا بكل ما فى الطبيعة ، كأن قلب التونسى يضارع هذه الارض المباركة ... فهو كما كانت دائما ملتقى التيارات المختلفة المتباينة ... كأن قلب الشابى هو قلب تونس فى اندماجه الشامل بالكون طبيعة وفلسفة وتاريخا . ثم ان الحليوى يبرز لنا ثقافة الشابى الغربية ، التى تظهر خاصة فى تأثره بالاساطير الاغريقية القديمة . فهو يؤمن بان الانسان يأتى للحياة من عالم النور لينزل الى الصراع البشرى المستمر . كما أن الحليوى يبرز ناحية هامة فى أدب الشابى ، فيدرس أفكاره فى شعبه ، والحقيقة أليس حقد شاعرنا الكبير على شعبه هو قمة ما يستطيع ان يعبر عنه فنان من المحبة العنيفة ، وأليس رفض الشعب الجاهل لشاعرية الشابى رفضا لاصالة الشعب وجذوره القديمة وتوقه للحياة .

وفى دراسة أزمة النقد فى تونس ، يظهر الحليوى للنور عدة آراء تونسية أهمها رأى الاستاذ المسعدى الذى يعتبره المؤلف من أشهر كتاب الادب الرمزى الذين فجروا اللغة العربية ليخرجوا بها عن جمودها وركودها المزمن .

وفى فصل آخر من فصول الكتاب يتصدى المؤلف للحديث عن نقائص الانتاج الادبى فى تونس فى الثلاثينات من هذا القرن ، وهو يثور لظاهرة الضحالة ، ويمكن لنا بيسر أن نلمس أسباب هذه الضحالة ، فهى ناتجة عن تخلى الادباء عن أصدق ما فيهم « روحهم التونسية » والتفافهم حول بانى القيم التقليدية ، وهذا الحديث دعوة صريحة للثورة على القيم المهترئة المعينة . يقول الحليوى : « يجب على الكتاب والشعراء أن يكونوا جريئين فى بسط آرائهم بل ثائرين وان لا يتقيدوا بنظرية من نظريات الادب أو مدرسة من مدارسه .. »

وكذلك يمضى الاستاذ المؤلف مبينا ملامح تونس العريقة فى كل من محمد البشروش وصالح سويسى ومحمد بوشربية وكرباكة ومحمد الفائز ومحمد العربى الكبادى وأبى الحسن بن شعبان والحبيب جاوحدو ...

هذه اللمحة أردتها تقديما لكتاب الاستاذ محمد الحليوى ، وتحية آبن لوالده أرفعها تقديرا لجهود الاستاذ الذى بقى شابا فى تفكيره الثورى الصحيح وشخصيته الجريئة صديقا لكل الشبان الذين يكتسحون الآن مجالات النشر ليثبتوا أن هذه الارض التونسية ليست عاقرا .

ا . ق .

قلق عصرنا

بقلم : محمد الأمين خلفة

لقد حسب هيجل أزمة العالم « سياسية »
واعتقد ما ركس انها أزمة « اقتصادية »
وظن توينبى أنها أزمة « روحية »
وقدر روسل انها أزمة « نزعة القوة »

أما انا فأقول أنها أزمة « نفسية تربوية » منذ بدأ الانسان يتعلم ثم اخـــذ يفكـــــر ...

شعوب الارض تلقى مسؤولية كبرى على ـ المربى ـ تجاه فلذات اكبادهم ، فاذا كان المربى معقدا نفسيا فسيخلق لنا اجيالا نفوسهم معقدة ، والتعقيد هذا يكون بمركبات النقص وضعف الشخصيـة والغـرور والغطـرسة والنفـاق والانكماش والتبعية ... ثم القلق ميزة هذا العصر ، واذا كان متعادل المركبات فسينتج لنا نفوسا غير معقدة .

فانعكاس الصور على النفوس كالنظر فى غدير ماء فاذا نظرت اليه فى حالة صفاء رأيت صورة وجهك مطبوعة على صفحة الماء ولكن فيها تغيير مرتبط بذبذبة الماء التى لا تنقطع .. وأما اذا نظرت الى غدير مكدر تشوهت صورتك . وهكذا تكون انعكاسات الصور البشرية على النفوس .

فنحن فى عالمنا الحاضر القلق ، والذى كثرت شروره فى سلمه وحربه ، نريد أجيالا نفوسهم صافية صفاء ماء الغدير مع الترحيب بهذا التغيير الطفيف للمحافظة على « استقلال الشخصية » وأما النفوس المكدرة فلا بد من تصفيـــة كدرها « بالتحليل النفسى » . ونفوس شعوب الارض قاطبة هذا حالها بمـا فيهم النفسانيون فى انكماشهم والمربون فى ضعف شخصيتهم وهيئة الامـم المتحدة فى مركبات نقصها وهيئة جائزة نوبل فى قلقها ... !

ما قول « الفكر العالمى » فيما ذهبت اليه وعلماء النفس خاصة والقراء الكرام عامـــة ... ؟

م . ا . خ

قصائد على السرير الابيض

محمد بن صالح بن عمر
والهـــادي بـوحـــوش

1) المضامـــــين

لقد حاولنا في الحلقتين السابقتين من هذه الدراسة ان نحدد المفاهيـــم الحضارية التي ينطوي عليها البناء الهيكلي لقصيدة « غير العمودي والحـر » فبينا مدى ارتباط الموسيقى الشعرية لهذا النوع الجديد من الشعر بالمحيط الصوتي الذي يعيش في خضمه الشاعر ومشاركتها في الافصاح عما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس ولقد اقتصرنا فيما سبق على توضيح هذه النواحي الشكلية اعتقادا منا ـ خلافا لما يراه الكثير من كتابنا ـ أن الشكل وحده فـي مقدوره ان يعبر عن حضارة بأسرها وان يعكس نظرة الى الوجود لا تخلو من العمق والطرافة . ومن هنا كان رفضنا لتلك الاوهام الباطلة التي طالما تعلق بها عدد لا يستهان به من النقاد العرب والقائمة على اعتبار المضامين المصدر الاساسي لدراسة تطور الشعر ما دامت هذه المضامين تتلون بتلون العصـور والامكنة . والواقع أننا لو فحصنا هذا الرأى جيدا لوجدناه مبنيا على سطحية في التفكير وسذاجة في تقييم الآثار الشعرية ، ذلك التقييم الذي لا يخرج في حد ذاته عن دائرة « التذوق » البسيط ، فيظل رهين العفوية واجترار الاحكام المسبقة بدون تمعن او تشبع بالروح العلمية . ومع هذا فنحن لا نرمـي بالمضامين عرض الحائط ولا ننكر مالها من قيمة وميزات ، لكننا نعتبر اختيارها والتصرف فيها حقا من حقوق الشاعر فلا يهمنا ان يكون ثوريا أو معتدلا ، محبا للمرأة او ناقما عليها ، متفائلا او متشائما : كل هذه الامور في نظرنا تافهة وخارجة عن نطاق الشعر .

ألا ان الشعر خلق فني يقوم في الدرجة الاولى على وعي المتعاطي له بكثير من المعطيات الحياتية والحضارية التي يهتدي الى تبينها بثاقب فكره وقـوة حدسه ثم تجسيم تلك المعطيات كلها في هيكل فني متماسك الاطراف ، متناسق الاجزاء ، ويأتي بعد ذلك الالهام والوحي والعبقرية والنبوغ والخرافات ...

وحتى لا يتبادر الى ذهن البعض ان « غير العمودى والحر » لا يقيم وزنا للمضامين رأينا ان نتحدث فى هذه الحلقة باطناب عن مزايا المضمون وخصائصه فى الشعر التونسى الجديد • ولقد اخترنا لهذا الغرض خمس قصائد للطاهر الهمامى تمثل وحدة متكاملة من حيث الموضوع الذى تدور حوله • والجدير بالذكر ان جل هذه القصائد وليدة نفس لظروف تقريبا إذ ان الشاعر قد كتب البعض منها فى مستشفى فرحات حشاد بسوسة والبعض الآخر فى المستشفى العسكرى بتونس وهى على التوالى : « قصيدة الحياة » ، « الرؤيا تمتد مترا » ، « مذكرات على السرير الابيض » ، « ممرضتى الجميلة » ، أصدقائى »

المحيط المادى

لدراسة هذه القصائد سنبدأ قبل كل شىء برسم المحيط الذى كتبت فيه معتمدين فى ذلك على الاوصاف والاشارات القليلة المتفرقة التى ساقها الشاعر فى خصوص ذلك المحيط •

ففى « قصيدة الحياة » نجد الشاعر يلح على وجوده « بين جدران أربعة » فيكرر هذه العبارة ثلاث مرات ويشير الى « الاسفلت البارد الحزين » الذى يحول بينه وبين نقاوة أديم الارض وطهارته •

وفى « الرؤيا تمتد مترا » يحدثنا الهمامى عن « سريره الابيض » بدون ان يسهب فى وصف شكله وما عليه من غطاء كما يذكرنا بالاسفلت البارد الحزين و « الجدار » الذى « يحجب عنه الشمس » و « يمنحه امتارا »

اما فى « مذكرات على السرير الابيض » فاننا نجد اشارة ثالثة الى «الاسفلت البارد الحزين » فهل تكفى هذه النقطات لتصور المحيط المادى الذى كتب فيه الشاعر قصائده ؟ ان هذا المحيط كما نرى تغلب عليه الرتابة •• فلقد طغى اللون الابيض على المشهد من جميع نواحيه • حتى كأننا أزاء صحراء من ملح أو وسط ضباب كثيف ••• ثم تضاف الى هذا البياض الشامل الاشكال المستطيلة الجافة للجدران الاربعة وسقف الغرفة وقاعها والسرير ويتداخل الكل ضمن بعض الامتار المكعبة القليلة من الفضاء ويتولد عن هذا التمازج قلق خانق فتاك سرعان ما ينفث سمومه فى المحيط الخارجي الذى يتحول فى مثل لمح البصر الى جحيم يتخبط فى داخله الشاعر بدون اى امل فى النجاة •••

اما الحركة فانها معدومة او تكاد وسط هذا المحيط الضيق ماعدا فى قصيدة « ممرضتى الجميلة » التى نلتقى فيها بشخصية هامة ستكون بمثابة الترياق

بالنسبة الى السموم القاتلة التى يفرزها القلق وهذه لشخصية هى المرضة التى قال الهمامى انها « جميلة عذبة » وأنها « سمراء » و « صعبة » ، « تضحك له » و « تحنو عليه » ٠

التجـــــــــاوز

فالمحيط اذن كما اسلفنا مافتىء يطوق الشاعر بضيقه ورتابته وبعصره عصرا فلم يجد بدا من مقاومته بكل ما يملك من بقايا قوة كاد يأتى عليها المـــرض ويحتدم الصراع بين الطرفين ولا يقدر الشاعر على تحطيم القيود المادية التى تكبله وبالتابع الانعتاق فيتأزم الموقف وتعظم المأساة وتشتد ضراوة المحيط الخارجى ويبحث الشاعر عن منفذ ينطلق منه وعن كوة صغيرة يطل منهما على العالم فلا يبصر أمامه الا الجدران الاربعة ترمقه فى شىء من التحدى والتشفى وتبرز المرضة بغتة فيجد فى عينيها راحته المنشودة ويتسلل منهما الى خارج المستشفى بحثا عن السعادة فى « غابتى زيتون » وهكذا فلقد اكتشف الهمامى طريق الخلاص من الآلام التى تمزق جسمه ونفسه فى خياله الذى يمكنه مـــن تخطى « الجدران الاربعة » لمعانقة العالم بأسره ٠

الا ان تجاوز الشاعر لمحيطه المادى الضيق لا يتجه دوما نحو سعادة وهمية يرتمى بين أحضانها قصد نسيان واقعه المأسوى المرير بل كثيرا ما نجـــده ينطلق بخياله الى الصعيد العالمى حيث تصطرع القضايا البشرية وتتزاحم فكأن المأساة الفلسطينية مثلا قد ضربت جذورها فى أعماق قلبه حتى اصبحت تمثل وحدة ومأساته الشخصية ٠

فى الجبهة الشرقية
قطـة رمـاديـة
رماديـــة كلـون أيـــامى
تمـوء مـواء
فهل أفاده تجاوزه لواقعه فى شىء ؟

كلا وكلا ! لقد تبين له فى نهاية الامر ان سجن غرفته لا يضاهى سجـــن العالم وأن الامه لا تضاهى آلام البشرية ٠ فلماذا الفرار يا ترى من « بـــين الجدران الاربعة » ؟ ومن « الاسفلت البارد الحزين » ؟ لقد كتب على المرء ان يعيش سجينا سواء فى « قعر مستشفى » او فى الهواء الطلق٠وهل من أمل فى الانتصار على الالم ؟٠٠ لقد تأكد الشاعر ان ذلك الامل ليس الا « فجرا خادعا كذابا » وهكذا يستبد به القنوط ويملك عليه نفسه ٠ ورغم كل ذلك ، فما اليأس الا

وليد لحظات معينة تمر على قلبه مرور البرق اذ سرعان ما يعاوده الامل من جديد فى مقطوعة « افراج »

الفجر فى الابـــواب
يـــــدق الفجـــــر
يتسلل عبر مشانق الظلمة
الفجـر فى الاعتـاب
يتكدس ضوءا وأزهارا

فالفوز قريب ولا داعى الى الخوف من الموت لان الشاعر ان مات ، سيواصل أصدقاؤه من بعده السير فى الطريق التى رسموها معا لانفسهم

سيبـــقى اصدقـــائى
يطـرقـــون سمع هذا العالـم
ويملاون شوارعـــه الكبيـــرة
ان جاز أن أفـــــنى
وينتهـــى غنـــائـــى
سيبقى اصدقائى
يشـوشـــون هـــذا العـــالم »

ولعل اهم ما نخرج به مما تقدم هو أن « غير العمودى والحر » لا يخلو من مضامين ذات مستوى رفيع وان كانت لا تمثل فى حد ذاتها الا عنصرا ثانويا من عناصر هذا الشعر الجديد **الذى يعبر عن الحضارة التونسية بشكله أكثر مما يعبر عنها بمضامينة** التى لا تفيدنا الا فى التعرف على حالات الشاعر النفسية

أضواء الفكر

• الاستاذ الشاذلي القليبي يعين عضوا بمجمع القاهرة :

علمنا بمزيد السرور والاعتزاز ان المجمع اللغوى بالقاهرة عين الاستاذ الشاذلي القليبي وزير الشؤون الثقافية خلفا للمرحوم ح٠ ح٠ عبد الوهاب وهكذا يضم المجمع مثل عهده منذ سنوات تونسيين : الاستاذ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور والاستاذ الشاذلي القليبي ٠ ونحن نهنيء الاستاذ بهذا الاختيار وبثقة المجمع فيه آملين ان تكون خبرته الواسعة فى حيوى الشؤون بالنسبة للثقافة والفكر أكبر عون على المساهمة فى جعل اعمال المجمع تكتسى بالنسبة للغة العربية صبغة اكثر عصرية والصق بحياة الشعوب العربية ٠

• أكادمية التاريخ الاسبانية :

وعلمنا ايضا ان أكادمية التاريخ الاسبانية انتخبت بالاجماع المؤرخين التونسيين محمد الطالبي عميد كلية الآداب ومصطفى سليمان زبيس مدير جمعية صيانة المدينة والمراقب السابق للآثار ٠

ونحن نهنيء الاستاذين بهذا الاختيار ونرجو لهما التوفيق فى أداء رسالتهما الجديدة ٠

• الحلل السندسية فى الاخبار التونسية للوزير السراج

اهدانا الدكتور محمد الحبيب الهيلة كتاب الحلل السندسية فى الاخبار التونسية للوزير السراج الذى قدم له وحققه ٠ وهذا الكتاب كان مخطوطة عملت الدار التونسية للنشر على ابرازها مثل غيرها من المخطوطات النفيسة التونسية ٠ ولا يسعنا الا التنويه بالعمل الجليل الذى قام به المحقق راجين ان يتواصل مجهوده فى احياء التراث ٠

• لنكتب ، لنكتب ، لنكتب

هذا ما اجاب به الاديب عز الدين المدنى مندوب جريدة « العمل » الغراء عندما سأله ــ وجمعا من الأدباء الشبان ــ عن رأيه فى آراء الاساتذة الذين عالجوا قضية « سلامة اللغة العربية » على منبر نادى « ابو القاسم الشابى » يوم الجمعة 13 فيفرى 1970 ٠

قال عز الدين المدنى :

« لنكتب بكل ما لدينا من قوة ! وبكل عزم ! وبكل ترو ! وبكل رصانة !

لنجسم ما يخامر اذهاننا من المسائل والقضايا في عصرنا وفي مجتمعنا ، بكل حرية ! وبكل وعي ! وبكل مهجة !

لننتج باللغة التي نختارها ، وبالنحو والصرف والقواعد التي نرتضيها ، وبالدلالات والالفاظ التي نريدها رغم « الوعظ والارشاد والتوجيه » ! رغم الاتهامات ! رغم السباب ! رغم الشتم والثلب ! رغم الاستنقاص والاحتقار ! رغم النيل من الكرامة ! رغم الدسائس التي تحاك في المقاهي والنوادي ! رغم القياسات العشرية المقننة ! رغم القوالب الجاهزة ! رغم الكليشيات المعفنة ! رغم كل شيء ! رغم الداء في القلوب المريضة ورغم الاعداء ! حتى نفنى في الكتابة !

المهم ان نكتب لان الكتابة صمود في وجه اي كان ! ولنعتبر الباقي هوامش وتعاليق وأهواء ونزوات وعقبات واشباه عقبات ! لنكتب ! لنكتب ! لنكتب ! »

ونحن نؤيده تمام التأييد اذ لا طريقة اخرى لفرض الذات غير الكتابة والخلق والانتاج .

• ظهرت أخيرا في مجموعة اليونسكو للروائع النموذجية ترجمة جديدة لمقدمة ابن خلدون الى الفرنسية في ثلاثة أجزاء . ومعروف ان الترجمة الكاملة لتاريخ ابن خلدون هي لدوسلان (De Slane) وترجع الى أواخر القرن التاسع عشر . فعسى أن تكون هذه الترجمة الجديدة اكثر مراعاة لفكرة ابن خلدون وأكمل من حيث الشروح والتحقيقات .

• **في البيداغوجيا :**

أهدانا مشكورا المربي محمد الناصف كتابه في البيداغوجيا وهي « مجموعة من الآراء اعتمد المؤلف في تقديمها على الأسس التربوية التي دلت التجارب على صحتها » . وهو كتاب مفيد أصدرته الدار التونسية للنشر في سلسلة للثقافة العامة وصاحبه متفقد جهوي للتعليم الابتدائي وأستاذ بمدرسة ترشيح المعلمين .